الفهـرس

التوسير ومفهوم الاستلاب

عبد الرزاق الدواى

هل الاستلاب مفهوم ايديولوجي ؟ يصنف التوسير مفهوم الاستلاب ضمن المفاهيم الايديولوجية الغير العلمية ، انه لا تعطي معرفة واضحة ودقيقة عن موضوعها ، ويعتبره مفهوما يرجع الى مرحلة «مثالية» ماضية فى الفكر الماركسي، ويفسر اللجوء الى هذا المفهوم حاليا ، واستعماله من جديد ، بردة مثالية وبورجوازية داخل الماركسية العلمية . ماذا يقصد التوسير بالايديولوجية وبالعلم ؟ لماذا يريد الغاء مفهوم الاستلاب ؟ سنحاول الاجابة عن هذه الاسئلة من خلال التحليل التالى :

1 — حول القطيعة المنهجية .

استعمل التوسير مصطلح « القطيعة المنهجية » ، الذى استعاره من باشلار ، لوصف عملية التقسيم الى مراحل ، التى احدثها فى فكر ماركس من خلال مؤلفاته ، وذلك بعد أن قرأ هذه المؤلفات قراءة « تشخيصية » ! يقول التوسير فى **لينين والفلسفة** ص. 19 : « ... بامكاننا ان نفكر فى هذا الحدث النظرى الذى يدشن هذا العلم الجديد ، مستعملين مصطلحا لباشلار ، على أنه « قطيعة منهجية » . ويقول فى **قراءة راس**

المال ج 2، ص 73 « .. ان هذه هى القطيعة المنهجية الوحيدة التى تؤسس الماركسية » .

بصدد هذه « القطيمة » نكتفى بطرح هذه التساؤلات : هل يصح تطبيق هذه « القطيمة » عنى شخص معين أم على مذهب ، على ماركس أم علي الماركسية ؟ آن باشلار استعمل هذا المصطلح فى اطــار نظريات علمية ، هل يصح استعماله ايضا فى اطار نظريات متعددة الوظائف (فلسفية ، ايديونوجية ، اقتصادية ...) ؟

ويقصد بهذه القطيعة ، تحديد الخط الفاصل بين « المرحلة الايديولوجية » فى فكر ماركس ، و« المرحلة انعلمية » التى ابتدأت بتأسيس المادية التاريخية (1845) . فى عبارة أخرى ، بريد وضع حد فاصل ، بين اشكالية ايديولوجية فى فكر ماركس الشاب ، تتميز بالتركيز على الانسان ، وعنى غائية التاريخ، وتستعمل مفاهيم فلسفيــة واخلاقية ، وبين اشكالية علميــة جديدة ، تضع أسس علم جديد فى مصطلحات دقيقة وجديدة .

ما انهدف من هذه القطيمة ؟ أنه حسب التوسير ، تخليص الماركسية المعاصرة من عناصر الايديولوجيات البورجوازية التى اخذت تمتزج بها : **مثل نظرية الاستلاب ، والنزعة الانسانية .** هذه العناصر التي بمثت مــن جديد ، خاصة بعد حمله النقد العنيفة التى وجهت للمرحلة الستالينية . آن نقد الستالينية قد « حرر ايديولوجيا البورجوازية الصغيرة التى **تحيا تلقائيا عند كل مثقف** » (1) فظهرت الدعوة الى الاهتمام بالانسان وبالحرية، وبالتالى العــودة الى مؤلفات كتبها ماركس قبــل ان يكون

(2) Inédit de L. Althusser, in **Théorie et Politique...**, p. 318.

ماركسيا ، كتبها وهو لا يزال مجرد شاب مثقف ويسارى ومتحمس لم يصف بعد حسابه مع الفلسفة المثالية !

حاول التوسير ، امام هذه « الردة » البورجوازية ، صياغة جديدة للماركسية ، مستعينا بمعطيات المنهج البنيوى، لكى يجعل منها علما دقيقا وصارما ، موضوعه الوحيد ، ليس هو الانسان ، بل الصراع الطبقي . ومن نتائج هذا التأويل الجديد للماركسية ، تقسيم فكر ماركس الى اربع مراحل متميزة ، تضم كل منها اشكالية خاصة ، وتتجاوز كل واحدة منها الاخرى . هذه المراحل هى :

ا ــ **مرحلة الشباب « الفويرباخية »** (1840 ــ 1844)، وهى مرحلة فلسفية أيديولوجية ، تبنى فيها ماركس اشكالية استلاب الطبيعة الانسانية عند فويرباخ (3) .

ب ــ **مرحلة القطيعة** : (1845) ، تجاوز فيها ماركس الاشكالية الفويرباخية ، واكتشف الاسس الاولى للمادية التاريخية .

ج ــ **مرحلة النضوج** : (1845 ــ 1857) أتم فيها تاسيس المادية التاريخية .

د ــ **مرحلة النضوج الكامل** : (1857 ــ 1883) وتنتهى بكتابة **راس المال** ، وهى المرحلة العلمية بكل معنى الكلمة (4).

2 ــ **العلم والايديولوجيا** .

---

(3) ينفى التوسير وجود مرحلة هيجيلية فى تكون الفكر الماركسى . يقول : « ان ماركس الشاب لم يكن ابداهيجليا (...) والرأى الشائع بصدد وجود هذه المرحلة هو مجرد أسطورة » .

L. Althusser. Pour Marx, Paris. Maspéro 1965. p. 27.

(4) نفس المصدر ص. 27.

تطرح القطيعة المنهجية من جديد ، مشكل علاقة العلم بالايديولوجية فى اطار ماركسى . وأول ما يجب الاشارة اليه ، بصدد هذه العلاقة ، كما يعرضها تأويل ألتوسير ، هو انها لا يمكن ان تؤل الى علاقة تقابل مبسط ، مثل التقابل مثلا بين الحقيقة والكذب ، أو بين الواقع والخيال . بعبارة أوضح : عندما نقارن العلم بالايديولوجيا لا يجب التقليل من اهمية الايديولوجيا وفعاليتها ، بل ان الايديولوجيا « خالدة » ولها « وجود مادى وفعال » (5) و« العلاقة بين العلم والايديولوجيا يجب أن تراجع باستمرار » (6) . هذه قضايا أساسية عند ألتوسير ، لا يجب ان تغيب عن بالنا .

يعتبر ألتوسير الايديولوجيا والعلم كيفيتين مختلفتين لادراك الواقع : الاولى تمتزج به وتحياه كعلاقة خيالية وتؤوله حسب المواقف ، تعترف به وتتجاهله فى نفس الوقت . والثانية تكون عنه معرفة بواسطة منهاج معين ، وبشروط معينة ، وذلك **من اجل تحويله وتغييره الى نسق نظرى** ، اى الى مفاهيم محددة ومنظمة فى نظرية .

يقول ج. هيبوليت شارحا هذه العلاقة : « ان هناك فى الماركسية ، قطيعة بين العلم والايديولوجيا ، بين معرفة الشروط الواقعية ، وتجربة الناس المعاشة . هذه هى القطيعة التى يتجاهلها تأويل النزعة الانسانية » (7) .

ان وظيفة العلم الاساسية هى وظيفة معرفية . ولكن للايديولوجيا أيضا ادعاءات معرفية . والعلم ينتقد هذه

(5) Althusser, «Idéologie et l'appareils idéologiques d'Etat» **in la Pensée** N° 151, juin 1970. p.p. 23 - 26.
(6) Althusser. **Lénine et la philosophie,** Paris, Maspéro. p. 40.
(7) J. Hypolite. «Le scientifique et l'idéologique dans une perspective marxiste» in **Diogène** (n° 64-1968). p. 41.

الادعاءات ، ويتناول المشاكل ، التى تطرحها الايديولوجيا بكيفية تخضع للمنهج العلمى . بل أن العلم يطرح مشكل الايديولوجيا نفسه ، ويكشف عن ميكانزم وظيفتها وكيفية تأثيرها فى الواقع وبذلك يلزم الايديولوجيا بتعديل مستمر لمواقفها .

حقا ان كثيرا من الافكار العلمية هى من أصل ايديولوجى ولكن المهم هو « ... انه ، مهما كان أصل هذه الافكار ، فيجب ان تدرس حسب شروط المنهج العلمى » (8) .

وبخلاف الايديولوجيا — التى تمتزج بالواقع وبكل الممارسات الاجتماعية ، وتجهل قواعد تكون موضوعها — يعتمد العلم على :

1 — فكرة وجود الواقع مستقلا عن المعرفة .

2 — دراسة موضوعية بدون اضافات خارجية .

3 — اسبقية الوجود المادى على الفكر .

4 — الخضوع لقواعد نظرية واضحة وقابلة للتعديل .

وهذه الشروط لا تتوفر فى الايديولوجيا ، التى تدرك الواقع ادراكا مؤولا وناقصا . ومن هنا جاز اطلاق هذه القضية التى يؤيدها التوسير « يعتبر ايديولوجيا كل نسق من التمثلات ليس نظرية علمية » (9) .

ان كل علم يعتبر قطيعة مع مرحلة ايديولوجية سابقة . هذه حقيقة ، حسب التوسير ، يمكن ملاحظتها فى تاريخ كل العلوم . وهذا يدل على ان العلم مرحلة لاحقة للايديولوجيا . ولكننا لا نستطيع أن نستنتج من هذه القضية ، أن العلم

---

(8) Maxime Rodinson, «Sosiologie marxiste et idéologie marxiste» in **Diogène** (n° 64, 1968) p. 83.

(9) J. Hypolite, «La scientifique...» op. cit. p. 35.

سيعوض الايديولوجيا فى يوم من الايام . ان الايديولوجيا هى نسيج كل ممارسة اجتماعية .

كما لا يقطع العلم صلته **بالايديولوجيا بصفة عامة** ، بل يقطع صلته بايديولوجيا معينة (فى حالة القطيعة المنهجية التى نعنيها ، يقطـــع العلم (المادية التاريخية) صلته بالايديولوجيا البورجوازية) . ولكن العلم ، فى نفس الوقت الذى يقطع فيه الصلة بايديولوجيا معينة ، فانه يقوى ويدعم موقفا ايديولوجيا آخـــر .

لقد تخلى العلم (المادية التاريخية) ، بعد القطيعة المنهجية، عن الايديولوجية البورجوازيـــة (نظرية الاستلاب والنزعـــه الانسانية) ، من أجل أن يدعم ويقوى موقف ايديولوجيا الطبقة البروليتارية ، لانها « الايديولوجيا الوحيدة التى ترتكز علـــى العلم » (10) .

وهكذا تعنى القطيعة المنهجية ، فى النهاية ، قطيعة بين « المادية التاريخية » كعلم اكتمل فى مؤلفات ماركس الاخيرة ، وبين ايديولوجيا بورجوازية لا تزال عناصرها واضحه فى مؤلفات ماركس الاولى .

نلخص الآن نتائج هذه القطيعة :

ا ـــ القطيعة المنهجية هى قطيعة بين المادية التاريخية والايديولوجيا البورجوازية .

ب ـــ لا تهدف هذه القطيعـــة الى احلال العلـــم مكان الايديولوجيا بل الى تاييد ايديولوجيا اخرى بواسطة العلم .

---

(10)' Althusseur, Lire le Capital. T. 2, Paris. Maspéro, 1965. p. 89.

ج ــ كل دراسة عن المجتمع ، وعن التاريخ لا تدخل فى اطار الاشكالية العلمية الجديدة ، تظل مجرد ايديولوجيا .

وما يهم بحثنا بصفة خاصة ، من هذه النتائج ، هو ان مفهوم الاستلاب ، حسب التوسير ، لا يدخل فى « الاشكالية العلمية الجديدة » بل هو مفهوم ايديولوجى من بقايا عناصر الايديولوجيا البورجوازية ذات النزعة الانسانية .

3 ــ النزعة الانسانية ومفهوم الاستلاب .

يتساءل التوسير ، عن السبب الذى يجعل كثيرا من الفلاسفة المعاصرين لا زالوا يرجعون الى مفهوم الاستلاب الايديولوجى والقبل ــ ماركسى ، مدعين بواسطته التفكير وحل المشاكل التاريخية الملموسة » (11) .

ويفسر ذلك بكون هؤلاء الفلاسفة يدافعون عن نزعة انسانية فى الماركسية ، وهدفهم هو ملأ فراغ نظرى عجزوا عن ملاه بمعرفة علمية. عوضا من أن يطرح هؤلاء الفلاسفه مشاكل الانسان طرحا صريحا ودقيقا فى مفاهيم سياسية واقتصادية تسمى الاشياء بأسمائها ، فضلوا ابقاء فى المجال الايديولوجى.

ان مفهوم « النزعة الانسانية » الذى من ورائه يراد الحفاظ على استعمال مفهوم الاستلاب ، هو ذاته ايديولوجى. ويوضح التوسير هذه القضية : « عندما نقول بأن مفهوم « النزعة الانسانية » مفهوم ايديولوجى وليس علميا ، نؤكد بذلك ، بأنه يعبر فعلا عن مجموعة من الحقائق الموجودة ، ولكنه ، بخلاف المصطلح العلمى ، لا يعطى وسائل لمعرفتها » (12) .

(11) Althusser, **Pour Marx,** op. cit. p. 246.

(12) المصدر السابق . ص. 229 .

لقد تبنى ماركس فعلا النزعة الانسانية ، خاصة ما بين سنة 1840 وسنة 1845 ، حين جعل من مفهوم الانسان اساسا نظريا وعمليا لفلسفته . وحسب التوسير ، يمكن أن نميز فى المرحلة « الانسانية » هذه عند ماركس فترتين :

أ ــ **الفتــرة الاولى** : كان فيها مفهوم الانسان مفهوما عقليا وليبراليا نجد فيه تاثيرا واضحا لكانت وفخته .

ب ــ **الفترة الثانيــة** : تطور فيها مفهوم الانسان الى مفهوم مجتمعى ، وهذه مرحلة متاثرة كثيرا باشكالية فويرباخ . نجد فى هذه المرحلة أن ماهية الانسان هى التى تؤسس التاريخ والسيــاسة : مفهوم التاريخ الحقيقى فى هذه المرحلة بالنسبة لماركس هو الاستلاب وتجاوزه ، خلق الانسان الحقيقى فــى عالم الانسان المستلب . وفى نهاية التاريخ فان الانسان الذى نقد صفاته ، سيسترجع ماهيته المستلبة فى الملكية الخاصة وفى الديــن وفى الدولة ، وذلك عندما تلغــى هــذه المؤسسات الاجتماعيــة .

نجد فى نظرة ماركس الى الانسان فى هذه المرحلة نموذجا للعمل السياسى : سياسة استرجاع عملى للماهية المستلبة فى صورة المال والسلطة والدين . وسيتم هذا الاسترجاع بواسطة ثورة تتحقق بفضل تضافــر الفلسفــة ونضال البروليتاريا : فالفلسفة تضم التأكيد النظرى للانسان، والبروليتاريا تجسد النفى العلمى لهذا الانسان . ان التحالف الفلسفى ــ البروليتارى هو تحالف من أجل تحقيق ماهية الانسان (13). لقد تخلى ماركس عن هذه النظرة المتفائلة ابتداء من سنة 1845 ، وتخلى فى نفس الوقت عن النزعة الانسانية وقطع علاقته مع كل نظرية تؤسس التاريخ والسياسة على ماهية الانسان .

---

(13) نفس المصدر . ص. 233.

وتحمل هذه القطيعة فى نظر ألتوسير ثلاث خصائص :

أ ــ انها بداية نظرية جديدة فى التاريــخ والسياسة ، قائمة على مفاهيم جديدة أطلاقا (مثل : قوى الانتاج ، علاقات الانتــاج) .

ب ــ انتقاد الجــذرى للادعاءآت النظريـــة لكل نزعة انسانيـــة .

ج ــ تعريف النزعة الانسانية بأنها أيديولوجيا .

ان هــذه القطيعة التى أحدثها ماركس مــع كل نزعــة انسانية وأنثربولوجية ، ليست مجــرد تفاصيل عابرة حسب التوسير ، انها تشكــل وحدة مع الاكتشاف العلمى الحديث (اكتشاف المادية التاريخية) . واذا كان ماركس نفسه قد تخلى عن مفهوم الاستلاب وعن النزعة الانسانية ابتداء من سنة 1845 (14) فلماذا التشبث باستعمال هذيــن المفهومــين ؟ ان لهذا التشبث مغزى سياسيا وعمليا : ذلك أن العناصــر البورجوازية الكامنة عند كــل مثقف ، استيقظت بعــد الردة البورجوازية (انتقاد انستالينية) ، لتدافع عن **الانسان** ، اى عن الانسان فى المفهوم البورجوازى . ولتوفق بين « الاشتراكية » و« الحرية » ، اى بين الصراع الطبقى والقيم البورجوازيــة الليبراليــة .

ولكن الهدف الحقيقى ، حسب ألتوسير ، لهذه الردة ، ولهذا التوفيق ولهذا التستر وراء مفهوم « الانسان » **هو طمس واخفاء الصراع الطبقــى** . عندما تريد « النزعة الانسانية » اثبات ان الانسان هو صانع التاريخ ، وان التاريخ هو تحقيق

(14) اى السنة التى كتب فيها ماركس وانجلز « **الايديولوجية الالمانية** ».

لماهية الانسان ، فهى تحرف قضية اساسية هى « ان ليس التاريخ ذات ، بل محرك ، هو الصراع الطبقى » (15) . ان التاريخ الحقيقى بالنسبة لهذه النزعة ، سيبدأ دائما « غدا ». وهذه مواجهة سلبية للصراع الطبقى الراهن ، مواجهة فى الفاظ مثالية واخلاقية . اذا كان ماركس قد اكتشف الصراع الطبقى من خلال مرحلة ايديولوجية (مرحلة النزعة الانسانيه)، فان هذا الصراع يطمس اليوم من طرف النزعة الانسانية ذاتها !

لماذا اذن يجب رفض الحديث عن الانسان وعن النزعة الانسانية ؟ يجيب التوسير «... ذلك ، لانه عمليا وواقعيا، فان كلمة النزعة الانسانية قد استغلت من طرف الايديولوجيا البورجوازيه التي تستعملها لتحارب بها، اى لتقتل بها كلمة اخرى صادقه وحيوية بالنسبة للبروليتاريا : الصراع الطبقى (...) وذلك أيضا لانه عمليا وواقعيا ، فان عباره الانسان هو الذى يصنع التاريخ قد استغلت من طرف الايديولوجيا البورجوازيه التى تستعملها لتحارب بها ، اى لتقتل بها عبارة اخرى صادقة وحيويه بالنسبة للبروليتاريا : ان الجماهير هى التى تصنع التاريخ » (16) .

ويعلن التوسير ، انه يجب الحديث صراحة ، فى المجال النظرى الصرف ، عن نزعة لا انسانية نظرية عند ماركس . هذا شرط مطلق لتحقق معرفة أيجابيه لعالم الانسان ولتحويله العلمى . « لا يمكن ان نعرف شيئا عن الانسان الا بشرط اساسى، هو القضاء على الاسطورة الفلسفيه عن الانسان »(17)

---

(15) Althusser, **Réponse à Jonn Lewis,** Paris Maspéro 1973. p. 98.
(16) Althusser. «La philosophie comme arme de la révolution» in **la Pensée**, n° 138 (AV. 1968) p. 33.
(17) **التوسير** ، المصدر السابق ، ص. 236 .

بامكاننا الآن ان نحصر الاسباب التى تدفع التوسير الى رفض « النزعة الانسانية » فى هاتين القضيتين :

ا ـ يجب رفض هـذه النزعة لانها تتضمن نظرة مثالية الى التاريخ من شانها اخفاء « المحرك » الحقيقى للتاريخ : الصراع الطبقـى .

يلغى التوسير فى هذه القضية العامل الانسانى فى التاريخ (وهذا موقف يعارض صراحة كثيرا من النصوص الماركسية ، كتبت فى المرحلة « العلمية » نفسها) ، ويؤكد اسبقية واهمية التناقض على الاطراف المتصارعة . لن تبقى للانسان كذات فاعلة ، من خلال هذا المنظور اية اهمية فى صنع التاريخ ، بل لن تبقى هناك اهمية حتى لطبقة معينة ، لان التوسير يريد حذف الذوات الفاعلة من التاريخ وابقاء الصراع الطبقى وحده كبنية محركـة .

وليس الخطير فى هـذه النظرة هو ان التاريخ سيصبح سياقا بدون موضوع ، بدون ذات فاعلة ، اى سيصبح عملية ضالة وتائهة بدون هدف ولا غاية . الاخطر من هذا كله ، انها نظرة تفترض وجود فئة متنورة ، مالكة للمعرفة وقادرة على الممارسة النظرية (جماعة التوسير ؟) وعارفة للحدود القائمة بين العلم والايديولوجيا وتتدخـل باسم هذه المعرفة لتحرير الانسان (18) . انها نظرة تقوى جانب الممارسة النظرية وبالتالى تعمق اكثر تقسيم العمل .

ب ـ يجب رفض « النزعة الانسـانية » لان الخصـم (البورجوازية) قد استعملتها لقتل واخفاء الصراع الطبقى واهمية دور الجمـاهيـر .

(18) Alain lIpietz, «D'Althusser à Mao» in **Temps Modernes** n° 328 - 1973), p. 786.

ويوحي لنا هــذا الموقف بالسؤال التالــى : هل هناك ضرورة ، فى ان يتخلــى مذهب ما ، عــن مصطلحاته ، اذا استعملها خصومه وحرفوها ؟ اذا كان الامر كذلك ، واذا حذفنا من القاموس الماركسى كل الكلمات والمفاهيم التــى استعملها الخصم ، فكم سيبقى فى حوزتنا من مصطلحات ؟ سنضطر الى حذف كلمات مثل : طبقة ، ديمقراطية ، ايديولوجيا ، عدالة ، استغلال ... الخ وكلمات اخرى لم يبق استعمالها مقصورا على الماركسية (19) .

هذا رفض يستند ، فى نظرنا على نمط استدلال ايديولوجى غير مقنع يمكن ان نسميه بـ « دليل بالنتائــج يجــب رفض استعمال مفهوم « النزعــة الانسانية » لان استعمال الخصم لهذا المفهوم قد أدى الى نتيجة هــى التحريف . اذن لتجنب الوقوع فى الالتباس والتحريــف يجب حــذف استعمال هذا المفهوم . ونعتقد ان هــذا دليل خاطىء لان المصطلحات ليست مجردة ، بل انها تفهم فى سياقها وفى اشكاليتها . ان مفاهيم مثل « الاستــلاب » و« الانسان » قد استعملها عديد مــن الفلاسفة ، ولكن كل داخل اشكالية معينة . فاذا كان هناك نقد فيجب ان يوجه آلي الاشكالية المطروحة لا الى مصطلحاتها مجــردة .

ويبدو ان التوسير ، قد عدل وجهة نظره شيئا ما بصدد هذه القضيــة ، على الاقــل فيما يخص موقفه مــن كلمــة « الاستلاب » فلم يعد يرفضها رفضا تاما كما فعل فى كل كتبه السابقة ، بل جعل موقفه — فى كتاب صدر له اخيرا — موقفا

---

(19) راجع فى هذا الصدد فصل « ازمة النزعة الانسانية فى الماركسية المعاصرة » من كتاب J. D'hont, **De Hegel à Marx,** P.U.F. 1972. p. 219.

مشروطا ، يقول : « يمكن ان تكون لمقولة الاستلاب بعض الفوائد العملية ، ولكن على اساس شرط مزدوج ومطلق :

أ ــ فصل هذه المقولة عن كل فلسفة للتشيؤ (الفتشية أو التموضع الذاتي) هذه الفلسفة التى ليست سوى صورة اخرى للنزعة الانثربولوجية .

ب ــ التفكير فى الاستلاب بواسطة مصطلح « الاستغلال » (20)

ونعتقد ان هناك نوعا من الايجابية فى هذا الموقف لالتوسير ، ولكن موقفه ليس نهائيا ، وقضاياه السابقة لا تزال فى حاجة الى نقاش .

(20) Althusser, **Réponse à** .... cit. p. 59.

عبد السلام بنعبد العـالى

العلم والايديولوجية عند التوسير

قبل ان نتطرق الى صميم المشكل نشير الى بعض الملاحظات الاوليـة :

1 ـ هذا المشكل يضعنا فى جوهر فكر (ألتوسير)

2 ـ لا نقصد بالتوسير هنا شخصا بلحمه وعظمه ، كما لا نقصد مدرسة فلسفية متميزة . فـلا عجـب اذن أن تمتـد الاستشاهدات الى اشخاص تواجدوا مع ألتوسير تواجدا تاريخيا وثقافيـا .

3 ـ سنحاول قدر الامكان ابراز هذا المشكل فى حركته . هاته الحركة تمتد من سنة 1963 الى الصيف الماضى : أى من ظهور المقالات التى جمعت فى كتاب (دفاعا عن ماركس) الـى ظهور المؤلف الاخير (أوضاع ومواقف) .

4 ـ هناك ما أجازف بتسميته النفحة الوضعية عنـد (ألتوسير) وجماعته . ولا اقصد مطلقا تشبثا بالنزعة الوضعية اذ اننا سنتبين العداء الذى يناصبه هؤلاء لكل تفكير اختبـارى

وضعى صراحة على الاقل ٠ كل ما فى الامر ان صاحبنا يحرص على دقة التعبير واختيار اللفظ ٠ وهذا ما يبرر التزامنا بالرجوع الى نصوص ربما نكون قد بالغنا فى كثرتها ٠

5 ــ نقصد بالزوج علم / ايديولوجية زوجا ابستملوجيا بمعنى انه لا يقابل تقسيما للمجتمع الى مثقفين يستلهمون التحليل العلمي وجماهير غارقة فى الغموض الايديلوجى ٠ لذلك فان دراستنا ستتسم بالطابع الابستملوجى وستقف عند المستوى الابستملوجى ٠

6 ــ الملاحظة الاخيرة تتعلق بالمنهج الذى ستتبعه ٠ فنحن ان نقارن بين العلم والايديلوجية بعرض الطرفين كل على حدة « فليس العلم حقيقا خطا هو الايديلوجية وليس هو الواجهة الخلفية للايديلوجية » (1) لذا فسنجد انفسنا منذ البداية نتحدث عن الزوج مباشرة عن العلم وعن الايديلوجية ٠ وسيظهر لنا ان الطرفين يظهران اثناء مواجهتهما ٠ وسنحاول ابرازهما عن طريق تحليل تفاعلها الجدلى ٠

يتخذ (التوسير) بصدد هذا الشكل موقفا يمكن ان نعتبره رفضا للموقف المثالى من جهة ، وللموقف الوضعى الاختبارى من جهة أخرى ٠ فبينما يوحد المثاليون بين الزوج علم ــ أيديلوجية والزوج صواب ــ خطأ (معرفة ــ جهل)، وبينما يعتبر الموقف الوضعى ــ الاختبارى أن الانسان يقوم فى عملية المعرفة بترجمة الواقع المباشر ونسخه وأن هاته الترجمة قد تكون صائبة موافقة لما تخبر عنه فتشكل العلم وقد تكون مغلوطة فتشكل الايديلوجية، نجد أن صاحبنا لا يقبل المفهوم المثالى عن الايديلوجية مثلما يرفض الموقف الوضعى ــ الاختبارى من العلم ٠ لذا فسنحاول فيما يلى أن نوضح هاتين القضيتين :

ــ ليست الايديلوجية معرفة خاطئة ٠

ــ و ليس العلم ترجمة للواقع المباشر .

فليست الايديلوجية معرفة خاطئة لانها ، قبل كل شيء ، ليست معرفة و « لان وظيفتها العملية المجتمعية تفرق أهمية وظيفتها النظرية المعرفية » (2) . فالناس « لا يعكسون ظروف عيشهم الواقعية و لا عالمهم الحقيقي فى التمثلات الايديلوجية . انهم يعكسون ، قبل كل شيء ، علاقتهم بظروف عيشهم . اذ فى هاته العلاقة توجد « العلة » التى بامكانها ان تفسر التشويه الوهمى للتمثل الايديلوجي . أن كون هاته العلاقة خيالية وهمية هو ما يفسر التشويه . فكل ايديلوجية تمثل فى تشويهها الخيالى لا علاقات الانتاج الموجودة (والعلاقات التى تنتج عنها) بل ، قبل كل شيء ، العلاقة (الوهمية) للافراد بعلاقاتهم فى الانتاج والعلاقات التى تنتج عنها . الايديلوجية . اذن لا تمثل منظومة العلاقات الواقعية التى تتحكم فى وجود الافراد بـل العلاقـة الوهمية لهؤلاء الافراد بالعلاقات الواقعية التى يعيشون فـى ظلالها » (3) فليست الايديلوجية « علاقة بسيطة . انها علاقة بالعلاقات ، علاقة من الدرجة الثانية (...) فى الايديلوجية تستثمر العلاقات الحقيقية فى علاقة وهمية . الايديلوجية هى العلاقة التى تعبر عن ارادات وآمال ومطامح أكثر مما تصف واقعا معينا » (4) فالايديلوجية اذن ليست عالما وهميا ، والوهم ليس يكمن فى التمثلات الايديلوجية بل انه موجود فى العـلاقة التى تربط تلك التمثلات بعلاقات الانتاج . ان الايديلوجية هى العالم الواقعى التى يحقق فيه الوهم .

وهكذا فليست الايديلوجية معرفة بظروف العيش الواقعية . انها تكرر المباشر (المظاهر الخداعة) وتدرك الوهم الموضوعى فتدخله داخل نسق تعتقد أنه الحقيقة . فاذا كان العلم معرفة بالواقع ووسيلة لتحويله (لا ينبغى ان نفهم التحويل هنـا على

انه تحويل تقنى يجعلنا ((سادة على الطبيعة ممتلكين لها)) بل على انه تحويل معرفى ، تحويل من شانه أن يخلق موضوعـات للمعرفة) فان الايديلوجية تعمل ضد نشوء المعرفة لذا يستغرب ألتوسير من أولئك الذين يتحدثون عن الايديلوجية كما لو كانت (وعيا ايديلوجيا) : ((جرت العادة بان يقال عن الايديلوجية انها تنتمى لمنطقة (الوعى). ولا ينبغى أن نغتر بهاته التسمية التى تحمل رواسب الاشكالية المثالية السابقة على ماركس . وفى الحقيقة ان الايديلوجية لا تربطها بالوعى علاقة كبيرة الشان . هذا مع افتراضنا أن للوعى معنى واحـدا . ان الايديلوجيـة لا شعورية فى جوهرها (...) حتى وان قدمت لنا نفسها فى شكل واع)) (5) الايديلوجية ميالة الى الغموض الواضح أكثر من ميلها الى الوضوح . انها تتشبث بالاعتقاد والوثوق أكثر ممـا تنزع الى النقد انها تحب الامتلاء وتهاب الفراغ . فهى اذن ليست طريقا الى المعرفة ما دامت كل معرفة حقيقية تقوم دوما ضـد يقين البداهات وامتلاء الفكر الدوغماتى . المعرفة الحقة كمـا يقول (باشلار) تصحيح للاخطاء وتقويم لاعوجاج ((وكل حقيقة جديدة تولد بالرغم من البداهة)) (6)

بهذا المعنى فان الايديلوجية لا تميل الى اقامة الاسئلة بقدر ما تتسقط الاجوبة وتترصدها ((ففى نمط الانتاج النظرى للايديلوجية (وهو يختلف هنا نمط الانتاج النظرى العلمى) لا تكون صياغة مشكل ما الا تعبيرا نظريا عن الظروف التـى تسمح لجواب تمليه مستويات مقتضيات خارجة عن المستوى النظرى ، تسمح لهذا الجواب أن يتعرف على ذاته فى سؤال مفتعل صيغ من اجل ذلك الجواب يكون فى ذات الوقت مرآة نظرية وتبريرا عمليا)) (7). الايديلوجية اذن وسيلة تكـرار وتعرف . انها لا تعرف الواقع الا لتتعرف فيه على رؤاها الخاصة

ولا تعرفه الا فتتجاهل مايضايقها فيه وهى لايمكن أن تعترف به الا اذا تجاهلت ما لم تستطع ادراكه .

ثم ان العلم لا يعدو أن يكون ممارسة نظرية فى حين ان الايديلوجية تشكل مستوى من مستويات كل تشكيلة اجتماعية . هذا ما رمينا اليه عندما قلنا بانها ليست عالما وهميا وانما هى العلم الواقعى الذى يتحقق فيه الوهم . يقول التوسير « فى كل مجتمع يوجد نشاط اقتصادى فى الاساس وتنظيم سياسى أشكال ايديلوجية وبهذا تشكل الايديلوجية جزءا عضويا فى كل وحدة مجتمعية (...) ليست الايديلوجية اذن ضلالا لا شيئا زائدا عرضيا بل هى بنية ضرورية للحياة التاريخية للمجتمعات » (8) ومعنى ذلك اننا عند تحليلنا للواقع الاجتماعى يجب أن ناخذ فى اعتبارنا الايديلوجى كاحدى مركبات هذا الواقع . فالايديلوجية ليست شيئا ينضاف الى الواقع بل أنها من احدى شروط العيش الضرورية . والتمثل الايديلوجى له قيمته الفعلية فهو تمثل فعال وليس هو ضربا من الخيال يمكن اهماله صحيح أنه ، بما هو وهمى ، فهو ليس طريقا الى معرفة ولكنه ان لم يتمتع بوظيفة معرفية فهو يناط بأدوار أخرى سنتبينها فيما بعد . ويكفى الآن أن نثبت فعالية التمثلات الايديلوجية وأن نعلم أن الخيال يكمن فى العلاقة الى تربط تلك التمثلات بظروف العيش . ذلك ما رمينا اليه عندما قلنا بان الناس لا يعكسون فى الايديلوجية الواقع الاجتمعى وانما الكيفية التى يحيون بها ذلك الواقع .

فاذا كانت ايديلوجية اذن من المركبات الاساسية للمجتمع اذا كانت مستوى من مستويات كل تشكيلة اجتماعية لم تعد مجرد خطا وضباب ينقشع اذا ما حل محله الصواب العلمى . يقول باديو : « من الجلى أن الوظيفة العملية المجتمعية التى تتحكم فى ذات ما « تحتل مكانتها » لا يمكن أن تكون نقيضا لانتاج موضوع معرفة لهذا فان الايديلوجية هى مستوى من مستويات

التشكيلات الاجتماعية لا يمكن للعلم أن يقضي عليه » (9) هذا ما جعل ألتوسير يعارض بشدة المفهوم المثالي للايديلوجية الذي يوحد بين الزوج خطأ / صواب والزوج علم / ايديلوجية .

ولما كانت الايديلوجية مستوى ضروريا لبنية المجتمع ، حتى المجتمع اللاطبقي ، صار لازما أن تكون تلك البنية معتمة غير شفافة بالنسبة للاعضاء والفاعلين فيها . يعارض ألتوسير بهذا جميع النظريات التي تعتبر الايديلوجية وعيا خاطئا ومؤقتا يكفي اماطته للكشف عن ظروف العيش الواقعية . ففي رأى هاته النظريات ليست الايديلوجية الا تمثلا وهميا وانعكاسا منفعلا لا فعالا . وهذا يعني أن التمثلات الايديلوجية عندها هي تمثلات وهمية خيالية ليس لها وجود واقعي وليست تتجسد في أجهزة معينة تتحكم في سير المجتمع وتكيفه وتساهم في « اعادة انتاج علاقات الانتاج » هاته النظريات لا تعتبران الوهم ليس يوجد في العلاقة التي تربط تلك التمثلات بالعلاقات الاجتماعية بل في التمثلات ذاتها .

أهم هاته النظريات حسب ألتوسير هي التي جاءت في كتاب (الايديلوجية الالمانية) ، فعندما يقول هذا الكتاب بان الاستلاب الفكري ناتج عن الاستلاب المادي فكأنما يفترض أن الايديلوجية تعكس الواقع أي أنها تعكس علاقات الناس الواقعية يرد ألتوسير بان الايديلوجية علاقة من الدرجة الثانية وهي ليست تعكس العلاقات الحقيقية وانما هي علاقة وهمية بالعلاقات الحقيقية . هذا ما يؤكده (بولانتزاس) عندما يقول : « ان نظرية ماركس الشاب حول الايديلوجية كانت تتمركز حول الذات كان مركس يتصور الايديلوجية انطلاقا من النموذج ذات — واقع — استلاب في الايديلوجية تفقد الذات ماهيتها العينية ، والايديلوجية هي اسقاط للذات في عالم وهمي »(10) . ذلك أن الايديلوجية من حيث هي مستوى من مستويات التشكيلات

الاجتماعية ، لاتردد صدى المستوى الاقتصادى . اذ ان مستويات الكل الاجتماعى يست متكافئة ولا هى تطفو على نفس السطح . فالكل الاجتماعى « يحتوى دوما على تمايزات داخلية وتدرجات وتوافقات وتباينات . والخلاصة أنه يحتوى على مستويـــات متراتبة وليس بامكاننا ان ننقل المبادىء التى تصلح لتحليل بنية اقتصادية لاستخدامها عند تحليل بنية دينية ، فالعناصر المكونة للكل لا يمكن ان يرد بعضها الى بعض . انها فى تناقض دائم »(11) فالكل الاجتماعى ليس هو الكل الهيجلى التى يتالف من عناصر متكافئة والذى يعبر فيه عنصر واحد عن باقى العناصر الاخرى. يقول هيجل « ان المفهوم الاساسى بالنسبة لنا هو مفهوم الوحدة اى الارتباط الداخلى لكل هاته الاشكال المختلفة ، يجب ان نتمسك بالفكرة التى تقول انه لا وجود الا لفكر واحد ، لمبدأ واحد يعبر عن نفسه فى الوضع السياسى كما يعبر عن ذاته فى الديانة او الفن او الاخلاق والاعراف المجتمعية او التجارة أو الصنـــاعة بحيث لا تكون هاته الاشكال المختلفة الا اغصانا لنفس الجذع » (12) . ونحن « لا يجب أن نخلط نظرية هيجل بحكـــم ماركس على هيجل » (13) . فالكل الهيجلى لا يوحده المستوى الايدياوجى كما اعتقد ماركس . اذ أن هذا الكل متكافىء الاطـــراف غـــير متراتب ولا متمفصل . والمبدأ الذى يحركه ليس مستوى مـــن مستويات الكل « بل انه مبدأ ليس له مكان ولا مركز متميز فى المجتمع لكونه يقطن جميع الامكنة ويحتل كل المراكز » (14) . الكل الهيجلى ليس بنية وانما هو مجرد جمع لعدة عناصر . هذا يخالف اشد الاختلاف المفهوم الماركسى البنيوى الذى يعتبر أن التشكيلة الاجتماعية عبارة عن كل متراتب غير متكـــافـــىء المستويات وعناصره « لا يعكس بعضها البعض بل انها تعطى كلها من اول وهلة داخل بنية متراتبة » (15) فميكانيزم الاقتصاد لا يتحكم بالضرورة فى آليات المستوى الايديلوجى والايديلوجيـــة

ليست ترديدا لايقاعات المستويات الاخرى كما يزعـم (كتـاب الايديلوجية الالمانية) .

ثم ان هذا الكتاب لا يعطى مكانة كبرى للايديلوجية وهو لا يعدها من المكونات الاساسية للواقع الاجتماعى . ولقد سبق ان رأينا أن صاحبنا يلح على ضرورة الايديلوجية بالنسبة لكل تشكيلة اجتماعية وعلى عجز العلم عن أن يقصى على الضبـاب الايديلوجى . ذلك لان الايديلوجية لها وظيفة أساسية فى المجتمع صحيح أن دورها ليس معرفيا كما رأينا ، وانها وسيلة تجهيل اكثر من كونها وسيلة (تعليم) الا أن لها مع ذلك وظيفة عملية . يقول (بولانتزاس) : ((ليست وظيفة الايديلوجية هو أن تعطى معرفة صائبة عن البنية الاجتماعية ، وانما وظيفتها أن تحشر الناس ضمن نشاطاتهم العملية)) 16 وكيف يتم ذلك ((ان وظيفة الايديلوجية على عكس العلم ، هو أن تضفى على التناقضـات الواقعية طابعا غيبيا ، وأن تشيد ، على مستوى خيالى كلامـا متناسقا يصلح كأفق لما (يعانيه) الناس . وذلك بتعديل تمثلاتهم لعلاقات تشكيلية ما)) (17). فالايديلوجية نسيج كل تشكيلـة اجتماعية وهى (الاسمنت) الذى يشد (أحجار) المجتمع بعضها الى بعض . انها انتاج لعلاقات الانتاج . ف ((هناك ضرورة لانتاج ظروف الانتاج المادية . ان انتاج قوة العمل لا يقتضى توالد الكفاءات العاملة فحسب بل يتطلب كذلك توالد الخضوع لنظام معين ، أى توالـد الخضـوع للايديلـوجية السائـدة)) (18) فالايديلوجية هى ((الميكانيزم المولد للفروق الضرورية لسيـر علاقات الانتاج ، والمحافظ على تلك الفروق (...) ويمكننا أن نقول اذن أن وظيفة الايديلوجية هو أن تجعل المنتجين يعترفون بمكانتهم داخل عملية الانتاج)) (19).

معنى هذا ان التمثل الايديلوجى يخالف تمام الاختلاف التصور العلمى . فالتمثل الايديلوجى يسعى الى ملء الفـراغ وتوحيـد

المتباين . بينما يبغى العلم معرفة الواقع الحقيقـــى .

لا يعنى هذا ان العلم ترجمة للواقع ونسخة عنه كمـــا يرى الموقف الوضعى ـ الاختبارى . يقول التوسير : ((لم يعد العلم يعتبر كما لو كان مجرد تقرير لحقيقة عارية متجلية نصادفها او نكشف عنها . بل انه انتاج (له تاريخه) للمعارف ، انتاج تحدده عناصر معقدة منها النظريات والتصورات والمناهج والعلاقـــات الداخلية المتعددة التى تربط مختلف هاته العناصر)) (20) فالعلم هو الممارسة النظرية المنتجة للمعارف وسيلتها فى ذلك التصورات والمفاهيم . ومن يتحدث عن الانتاج يذكر التحويل ، تحويل الواقع المعطى وتغيير المباشر . يقول (غودولييه) : ((ان الفهم العلمى للواقع الاجتماعى لا يمكن أن يرتكز على انطباعات الافراد عنه ، حتى ولو كانت هاته الانطباعات ثمرة التامل الجدى . والواقع أن مهمة الوصف العلمى تكمن فى البرهنة على أن هذه الانطباعات هى مجرد أوهام كما يكمن فى أستظهار المنطق الداخلى الخفى لحياة المجتمع . بذلك يكون النموذج الذى يبنيه العلم مطابقـــا لواقع مختبىء خلف الواقع الظاهر)) (21) فالمعرفة العلمية تتم عن طريق انتاج موضوع يتميز عن المعطى المباشر والعلم يخاصم الواقع الطبيعى لينشىء واقعا علميا ، انه كما يقول (باشلار) ((يقاطع الطبيعة لكى يشيد تقنية)) (22) . فليست التجـــارب العلمية رجوعا الى واقع معطى وانما هى انتاج لواقع جديد ، ناتج عن التقدم العلمى . ليست الملاحظة ((قراءة لكتاب الطبيعة)) ولا ((انصاتا لما تقوله الظواهر)) (ك. برنـــار) ، وليســـت التجربة العلمية تحققا نقدم فيه الفرضية الموضـــوعية موضعـــة وفعالية وصناعة للظواهر العلمية . ليس العالم هو الحكم الذى يحكم على العلم بل انه هو تلك الصورة المتحولة التى يعطينـــا اياها العلم عند تحققه . يقول (باشلار): ((لقد بلغنا مستوى من المعرفة العلمية أصبحت فيه الموضوعات العلمية هى مانصنعه

نحن لا أقل ولا أكثر » (23) . ان اعتبار العلم قراءة لواقع معطى يعكس مفهوما معينا وأشكالية بعينها يناصبها التوسير عداء شديداً : تلك هى الاشكالية المميزة للنزعة الوضعية الاختبارية « أن استثمار المعارف ، باعتبارها جزءا من بنية الواقع الفعلى للموضوع الواقعى ، هو ما يميز الاشكيالية التى تطبع المفهوم الاختبارى للمعرفة » (24) ان هاته النزعة تنسى أن « المعطيات» فى العلم ، تكون نفسها عبارة عن نتائج » (25) فنحن « مهما رجعنا القهقرى فى ماضى فرع معين من فروع المعرفة فاننا لن نجد أى حدس حسى أو تمثل خالص . بل اننا نجد دوما مادة أولى معقدة التركيب . نجد بنية من الحدوس وأتمثلات تمزج بين عناصر حسية وأخرى تقنية وأخرى ايديلوجية . لذا فان المعرفة لا تكون قط مثلما تتصورها النزعة الاختبارية أمام موضوع خالص هو الموضوع الواقعى » (26) « فالواقع العيانى يكون عينا لانه يكون تركيبا بين عدة محددات . انه وحدة لتنوعات . لذا فهو يتجلى فى الفكر كعملية تركيب ، كنتيجة لا كمنطلق بالرغم من انه هو المنطلق الحقيقى ، وبالتالى منطلق الرؤية المباشرة » (27) الواقع العلمى اذن ليس هو الواقع المعطى . انه واقع خفى . والادراكات المباشرة هى خدعات يفرضها الوهم . يقول ماركس فى (الراسمال) « ان الشكل المكتمل الذى تتخذه العلاقات الاقتصادية كما تتجلى فى السطح وفى وجودها العينى ، وبالتالى كما يتمثلها الافراد الذين يكونون تلك العلاقات والذين يجسدونها عندما يحاولون فهمها ، ان ذلك الشكل يخالف أشد الخلاف لابنية الداخلية التى هى بطبيعتها مختبئة . وفى حقيقة الامر انها تكون النقيض المخالف لذلك الشكل » (28) ان اختفاء الموضوع العلمى لا يرجع الى عوامل سيكلوجية كضعف فى الادراك ونقص فى الذكاء كما انه لا يعود الى عوامل اخلاقية كسوء النية وتعمد الكذب ، انه ليس راجعا لعوامل فردية شخصية و « ليس الانسان هو الذى يخدع ذاته وانما الواقع هو الذى يجعله ينخدع وذلك بان

يظهر بالضروة فى شكل يخفيه ويظره مقلوبا أمام الوعى التلقائى للافراد (...) وهكذا يشكل هذا الظهـور المقلـوب المنطلـق الضرورى للتمثلات لاتى يكونها الافراد عن البنية الاجتماعية ، تلك التمثلات التى ليس الوعى ولا الفرد بمسئولين عنها » (29)

لا نعنى بهذا ان الواقع له طبيعة وماهية محددة تجعله ممتنع عن الانكشاف . هذا ما يشير اليه (رانسيير) فى كتاب ظهـر بعنوان (عبرة التوسير) فيقول : « ان البنية لا تختفى لكونها تفضل الاختفاء كالطبيعة الهيراقليطية ، انهـا تخفى طبيعتهـا المتناقضة » (30) .

معنى هذا ان المعرفة تصبح ايديلـوجية كلمـا حـاولت (الالتصاق) بالواقع دون أحداث تغيير معرفى عليه . فالعلم اذ ينتج المعرفة الموضوعية يعلن الحرب على الاوهام الايديلوجيـة ويحاول تعرية ميكانيزمات المستوى الايديلوجى ولكنه لا يستطيع القضاء على تمثلات يجد الناس فيها معايير سلوكهم ، تمثـلات تضمن الترابط الاجتماعى وتتجسد عند مختلف المجتمعات فى شكل قواعد ومبادىء اخلاقية وعلاقات اسروية وممارسـات فنية . ذلك ان التمثلات التى تشكل الايديلوجية ليست زائدة فهى التى تضمن كما رأينا وحدة التشكيلة الاجتماعية . ولا يعنى هذا ان الايديلوجية تقضى على التناقضات الاجتماعية بحلها . فالوحدة المقصودة هنا وحدة وهمية ، وحدة تخفى التنـاقض وتغلفه . يقول (بولانتزاس) : « ان بنية الايديلوجى تتوقف على كونها تعكس وحدة تشكيلية اجتماعية . ومن وجهة النظر هاته فـان دورها النوعى والفعلى فى التوحيد لايتجلى فى تكوين وحدة تشكيلة ما كما يزعم الموقف الاختبارى — بل فى عكس تلك الوحدة بتكوينها فى مستوى خيالى وهمى » (31) فالايديلوجية عامل ربط وتلاحم فى المجتمع ، ومن يتحدث عن الرباط والتلاحم يغفل التنـاقض والصراع « ان الايديلوجية، على عكس المفهوم العلمى للمنظومة،

ترفض فكرة التناقض فهى تحاول ان تحل التناقض باغفاله . وهذا يعنى ان بنية الكلام الايديلوجى تخالف اشد الاختلاف بنيـــة الكلام العلمى » (32) الايديلوجية وسيلة تشويه وقلب : انها تظهـــر التناقض وحدة والتنافر انسجاما . وهى تقلب الامور وتشوهها فتجعل العلل معلولات والمسببات أسبابا .

وهكذا يكون التحليل علميا اذا ما بين روابـــط الواقـــع المعاش بشروطه المادية ، وهو يكون ايديلوجيا اذا ما اقتصـــر على تبرير الواقع باعتباره فى ذاته كما لو كان يحمل معناه فى ذاته ودون ارجاعه الى شروطه المادية المحددة . ذلك ما يجعل الانتاج العلمى يتم ، على خلاف الايديلوجية ، تحت مراقبة الحالة التى يكون العلم قد وصل اليها وهو يخضع بالتالى لقواعد معينة. فى الميدان العلمى هناك علوم معينة تضع مشاكل معينة وصعوبات محددة فى اطار معين ، فتحاول حلها حسب وسائلها النظرية . وهذا ما يجعل العلم طريقا مفتوحا أما الايديلوجية فمن حيث انها تتجاهل قواعد نشأة موضوعاتها والتحولات التى تدخلها هى عليها فهى لا تضع الا المشاكل التى تكون قد خمنت حلولها ، وبعبارة أدق انها لاتضع المشاكل ، كما رأينا ، وانما تضع حلولا تعمـــل على صياغتها فى صورة اسئلة .

بهذا المعنى لا تعترف الايديلوجية بنفسها كايديلوجية لانهـــا تتجاهل قواعد نشأة موضوعها . فالمفهوم الايديلوجى « لا يحمل على عرض جبينه او فى داخله سمة الايديلـــوجية (...) ان المفهوم الايديلوجى ، على العكس من ذلك ، يعرض نفسه كمـــا لو كان هو الحقيقة . وهو لا يمكن أن ينعت بالايديلوجى الا من الخارج وبعد حين (...) وفعلا ، فان كل علـــم ، عندمـــا ينبعث فى تاريخ النظريات ويتضح كعلم ، يبين مـــاضيه النظرى الذى ينفصل عنه كماض ضال بعيد عن الحقيقة » (33) ذلـــك ما يوضحه أحد اتباع التوسير اذ يقول : « ليس هناك كوجيطو

مخاطب : (أنت ايديلوجي) . » (34). فالايديلوجية لا تصبح ايديلوجي (أنا ايديلوجي) ، بل هناك دوما اتهام يصاغ صيغة ايديلوجية الا بالنظر الى العلم الذى تكون على انقاضها . وكل علم هو علم ايديلوجية وما قبل ــ تاريـــخ علم ما هو تاريـــخ ايديلوجيته . يقول التوسير : « ان الممارسة النظرية لعلم مـــا تتميز دوما وبوضوح عن الممارسة النظرية الايديلوجية التـــى تطبع ما قبل ــ تاريخ ذلك العلم . وأن هذا التمييز يتخذ شكل انفصال (كيفى) نظري وتاريخى ، يمكننا أن نطلق عليه مـــع (باشلار) لفظ قطيعة ابستمولوجية » (35) هاته القطيعة اذن هي نقطة انفصال بين اشكالية علمية واشكالية ايديلوجية اى من كيفية معينة لطرح المشاكل الى كيفية اخرى . وهذا لا يعنى أن القطعية قضاء على الماضى الايديلوجي لتعلم . فـــالتمثـــلات الايديلوجية لا تختفى عند ظهور العلم . وانما تعيد تنظيم ذاتها يكون لدى الافراد عن هاته العلاقات (حتى لدى العلماء). حتى عن طريق تدخل العلم وهي تظل مصاحبة للعلم فى طريقه ولكنها تغير من حلتها وتجدد لونها . يقول (غودولبيه) « ان المعرفة العلمية لبنية علاقات السوق لا تقضى على الوعى التلقائى الذى يكون لدى الافراد عن هاته العلاقات (حتى لدى العلماء) حقا ان تلك المعرفة تغير وظيفة ذلك الوعى وتعدل من فعاليته وتاثيراته على السلوك ولكنها لا تحذفه وتلغيه » (36). يتضح لنا هـــذا مثلا بصدد قيام علم بالتاريخ « فعلم التاريخ باعتبـــاره علمـــا بالممارسة الاجتماعية ، يقضى نظريا على الايديلوجيات النظريـــة قبل العلمية التى يقوم ضدها . ولكنه يتضمنها فى ذات الوقت من حيث أن تلك الايديلوجيات تنحل الى ايديلوجيات عملية مرتبطة بالصراع الطبقى وتعمل كعناصر مكونةللممارسة الاجتماعيه »(37) نفهم معنى تلك المصاحبة التى تستمر بين العلم الناشىء والتمثلات الايديلوجية السابقة اذا علمنا ان هناك بجانب الايديلوجية النظرية ايديلوجيات عملية . والايديلوجيات العملية هى «تشكيلات معقدة

مركبة تنتج عن تركيب مفاهيم وتمثلات وتصورات في سلوك وأعمال وحركات بحيث يقوم المجموع بوظيفة معايير عملية توجه مواقف الناس وأعمالهم ازاء المشاكل الواقعية التي يطرحها وجودهم الاجتماعي والفردي اي التي يطرحها تاريخهم ((38)) وهكذا فالممارسة العلمية تعني الانفصال في كل لحظة عن البداهات الايديلوجية ، وبهذا المعنى لاتكون القطيعة حدثا تاريخيا ذريا ، انها مجموع السحبات التي يلقي فيها العلم نظرة التي خلف ليكشف عن ماضيه كماض ايديلوجي . وبعبارة ادق ان العلم لا يكشف عن الطابع الايديلوجي لذلك الماضي بقدر ما يساعد على ذلك الكشف .

فليس العلم هو الذي ينعت الماضي قبل — العلمي بأنه ماض أيديلوجي . ان المعرفة العلمية تكتفي بوصف ذلك الماضي بالضلال والخطا . ولفضح هذا الماضي الخاطيء وكشف غلافه الايديلوجي لابد من تدخل طرف ثالث بين العلم والايديلوجيا ذلك الطرف هو الممارسة الفلسفية . فهاته الممارسة هي التي تبين أن أخطاء الماضي كانت تمثلات ايديلوجية تدعي الحقيقة . ف ((عندما يتكون الفكر العلمي كعلم فانه يكشف أن المعارف السابقة كانت معارف خاطئة لا ايديلوجية والفلسفة هي التي تكشف عن هاته الاخطاء بوصفها أخطاء أيديلوجيه ((ميتافيزيقية)) عند كونت و ((ايديلوجية)) عند ماركس و ((تحليلية)) عند باشلار و ((وضعية جديدة)) عند التوسير . أن التفكير الفلسفي النقدي الذي ينصب حول حلول الفكر العلمي هو الذي يكشف العلاقات الجدلية لهذا الفكر مع الايديلوجية وليس العلم ذاته ، فالعلم يهدم الاخطاء الايديلوجية دون أن يفكر فيها كحواجز ابستملوجية . وهكذا فالتامل الفلسفي هو نافذة ثالثة نستطيع من خلالها وحدها أن نميط اللثام عن العلاقات الجدلية بين العلمي والايديلوجي)) (39) .

الايديلوجية لا تقدم نفسها كايديلوجية والعلم لا يستطيع أن يكشف عن ماضيه كماض ايديلوجي بل انه كما قلنا يعجز عن

التخلص من ذلك الماضى ما دامت الايديلوجية تصاحبه . لذا فلابد من تدخل الطرف الثالث الذى يقوم بوظيفة النقد . فكان المصارع الحقيقى للايديلوجية ليس هو العلم وكان خصمها النظرى الاساسى هو الفلسفة من حيث ان هاته تتدخل كفكر يستعمل الكشوف العلمية ليحارب الاوهام الايديلوجية ((فعندما تكون خلال القرنين السابع والثامن عشر فلك وفزياء رياضية ، ظهرت فى ذات الوقت ايديلوجية علمية تحلم بطبيعة تخضع خضوعا مطلقا للقوانين الرياضية ، طبيعة تمطينا الرياضيات عنها صورة كاملة وتخضع لمبدأ رياضى هندسى ميكانيكى عند ديكارت وجبرى حسابى عند لايبنتز .))(40) ولكن تلك الفيزياء كانت فى ذات الوقت قطيعة مع الاشكالية الايديلوجية الارسطية فكانت الحاجة ماسة الى تدخل فلسفى يفضح المفاهيم الارسطية ويكشف بعدها الايديلوجى . ذلك كان هو التدخل الذى قام به ديكارت . كان على ابى الفلسفة الحديثة ان يقيم المفهوم الجديد للطبيعة وأن يمد العلم بما يحتاج اليه من تصورات جديدة . كان عليه أن يقوض صرح المفهوم الذى خلفته القرون الوسطى عن الطبيعة ، ذلك المفهوم الذى كان يعتبر الطبيعة كلا منظما متناهيا مترابطا متفاضل الاجزاء يجسد تدرجه وتراتبه تدرج القيم والكمالات . لكن الاشكالية الجديدة التى أرسى قواعدها (غاليلو) كانت تقتضى مفهوما جديدا مغايرا عن الطبيعة . نعم ان الطبيعة عند غاليليو ستبقى منظمة ولكن النظام عنده يختلف عن النظام الارسطى اللاهوتى : النظام الديكارتى الغاليلى نظام هندسى ميكانيكى والنظام الوسيطى نظام انطلوجى اخلاقى الطبيعة فى الاشكالية العلمية هى علاقات موازاة وتناظر وتقابل اما فى الاشكالية الايديلوجية فهى علاقات بين الجميل والقبيح ، بين القوى والضعيف بين الاسمى والناقص كانت الاشكالية الجديدة اذن فى حاجة الى مفهوم ميكانيكى عن الطبيعة لم يكن ليتواجد جنبا الى جنب مع مفهوم العلة الغائية كما هو عند ارسطو . يقول (دوزانتى) : ((يجب أن نتبين فى

وضوح طبيعة التناقض بين التصورات القديمة التى خلفها أرسطو وتلك التى كان ينبغى اقامتها وتكوينها . ان التصورات العتيقة كانت (واضحة) وانها لم تكن لتتمتع فحسب بالسلطة التى يخولها لها قدمها الزمنى ، بل انها كانت كذلك فى اتم انسجام مع أكثر المعطيات بساطة وأقربها الى تناول الادراك العادى والممارسة الساذجة (...) وعلى العكس من ذلك فان التصورات التى كانت تقتضيها الفيزياء الجديدة كانت بعيدة عن الحس العام (...) فكان من الضرورى لتشييد هاته التصورات الجديدة ، القضاء على كل مظاهر (الحس) .»(41) ولكن التدخل الفلسفى يبدو هنا متوقفا على حدوث القطيعة وعلى وجود علم بالفيزياء « فاذا ما تبنينا طريقة التوسير بوضوح تجلى لنا أن الحوار والجدل يتم بين اطراف ثلاثة : العلم والايديلوجية والفلسفة . وهاهنا لا وجود للفلسفة الا كفاصل بين الايديلوجية والعلم . وهذا يعنى ان الايديلوجية قد توجد دون وجود العلوم وقبلها . ولكن فى تلك الحالة لا تعى الايديلجية ذاتها كايديلوجية . وهناك ضرورة لظهور العلم بالموضوع الذى كانت الايديلوجية فيما قبل تهتم به كى تظهر الايديلوجية كايديلوجيته ويفكر فيها بوعى أنها كذلك . وان اداة هذا التفكير هى الفلسفة التى ظهرت لاول مرة مع ظهور اول العلوم »(42).

ذلك أن من شان القطيعة (Coupure) أن تحدث انفصالا (rupture). وهذا الانفصال ناتج عن اكتشاف علم جديد يهزم المفاهيم الايديلوجية ويغير من طبيعة التدخل الفلسفى .

ينتقد التوسير نفسه فى كتاب (النقد الذاتى) ما قاله سابقا عن القطيعة الابستملوجية فيقول :« ورغم جميع الاحتياطات التى اتخذتها فاننى فهمت القطيعة ووحدتها باستعمال الفاظ عقلانية كالعلم واللاعلم ، لا بمعقلانية صريحة تستعمل الالفاظ

التقليدية التى تميز بين الحقيقة والخطـــا (...) او المعرفـــة والجهل (...) بل ان الامر كان اخطر من ذلك ، لاننى صفت تلك المقابلة باستعمال اللفظين المتعارضين : العلم والايديلوجية . ولماذا كان الامر اخطر ؟ لاننى حاولت ان اقابل العلم بمفهـــوم ماركسى شديد الاهمية ولكنه عظيم الالتباس . خصوصا واننى اخذته فى التباسه الخداع الموجود فى كتاب (الايديلوجية الالمانية) حيث يستعمل للدلالة على معنيين متمايزين وحيث يلعب دورين مختلفين أولا كمقولة فلسفية من جهة (وهم ، خطا) وكتصور علمى من جهة أخرى (تشكل البنية العليـــا) » (43) ذلك ان القطيعة ليست مجرد انفصال نظرى . وان الاقتصار علـــى البعد النظرى فى فهم القطيعة يكون اغراقا فى النظرية : « ولكن بدل ان اعطى لهذا الحدث التاريخى جميع ابعاده الاجتماعية والسياسية والايديلوجية والنظرية ، ارجعته الى واقعة نظرية محدودة هى القطيعة الابستملوجية كما يمكن ان نلاحظها فى أعمال ماركـــس أبتداء من 1845 . وبهذا العمل وجدت نفسى اسقط فى تاويـــل عقلانى للقطيعة ، تـــاويل يقابل احقيقة بالخطـــا تحت اســـم التعارض التاملى بين العلم والايديلوجية (...) وقـــد كـــان الصراع الطبقى غائبا عن هذا المشهد العقلانى والتاملى » (44) فهو اكتفى بالنظر الى القطيعة فى المستوى الابستملوجى وفيـــه وحده « اننى بارجاع القطيعة الى تلك المقابلة وحدها (...) كنت قد اتخذت ، دون انتقاد ، وجهة نظر العلم عن ذاته (...) وجهة نظر أصحاب الممارسة العلمية حول ممارستهم الخاصة » (45) « اننى لم أستطع أن ابين العوامل التى تتحكـــم فى تلـــك القطيعة بالرغم من اننى غذيتها بمقولات تاريخية جدلية » (46) ان فهم المقابلة بين الحقائق والاخطاء ضمن نظرية عامة عـــن العلم والايديلوجية « لهو اغراق فى التامل » (47) وهو نزعـــة نظريـــة (theoricisme)

لا يكتفى (باديو) و (بالميس) فى كتابهما (حول الايديلوجية) بهذا الانتقاد الذى يوجهه التوسير لنفسه حول مفهومه عن القطيعة ونظريته العامة عن الايديلوجية . وهما يعتقدان ان المشروع الالتوسيرى لم يكن مفرقا فى النظر فحسب ، بل انه مغرق فى الصورية كذلك . فهذا المشروع فى رأى صاحبى كتاب (حول الايديلوجية) ليس ماديا ولا جدليا : فهو ليس ماديا « لان كل علاقة داخلية بين الايديلوجية وقاعدتها المادية توجد مفصومة » (48) داخل هذا المشروع . يعيب الكاتبان على التوسير مفهومه عن الايديلوجية ويعتبرانه مجرد مفهوم صورى « فالايديلوجية ليست عنده انعكاسا للعلاقات الحقيقية بل هى انعكاس للوهم الاجتماعى للافراد . انها صورة عن الصورة . وهى لا تملك اى دلالة حقيقية وبهذا فبامكانها أن تعمل كآلية منغلقة على ذاتها وأن تقوم ككل ضد العلم » (49) فالمفهوم الالتوسيرى فى رأيهما يعدم فعالية الواقع المادى وينفيه فهذا الواقع « لا يكون فى متناول وعى الافراد الماديين ولا تصل اليه الا مساعى العلم المختصة والمعزولة عن الممارسة . وهاهنا لايلعب الشعور بالاستغلال ووعيه والتمرد عليه اى دور ولا علاقة له بادراك العلاقات الطبقية ومعرفتها الموضوعية » (50) ان ما يغفله التوسير فى راى باديو وبالميس هو كون الايديلوجية دوما « تحت تأثير « قوى محركة حقيقية » (51) وكون « الوهم يرتبط لا بالافكار ذاتها ، تلك الافكار التى لا يمكن ان تصدر الا عن الواقع بل كونه يتعلق بتصور استقلالها الذاتى » (52) بمعنى أن التفكير يصبح ايديلوجية عندما ينفصل عن القوى المادية فيعتقد ان هناك باطنية تحدده وتعمل فى استقلال عن تلك القوى المادية . « فالوهم والوعى الزائف يتعلقان بشكل التمثلات لا بمحتواها » (53).

يبدو أن الكاتبين لا يدركان تمام الادراك فحوى التعريف الذى يعطيه التوسير للايديلوجية فقد سبق ان رأينا ان صاحبنا لا

يقول بان محتوى التمثلات الايديلوجية محتوى وهمى ، انه يؤكد ان الايديلوجية ليست عالما وهميا ، وانها اداة فعالة فى المجتمع ومستوى اساسى من مستويات كل تشكيلة اجتماعية . وانها العالم الواقعى الذى يتحقق فيه الوهم والخيال . فالتمثلات الايديلوجية لها وجود فعلى والوهم لا يكمن الا فى العلاقة التى تربط تلك التمثلات بالعلاقات الاجتماعية . ثم ان التوسير ، عندما يقول بان تلك التمثلات لا تعكس العلاقات الاجتماعية الحقيقية بل علاقة بتلك العلاقات ، فهو لا ينفى ان تكون هناك قوى مادية تجعل الناس يسقطون ضحية الاوهام كما لا ينكر وراء تستر الواقع و « اختفاء » العلاقات الحقيقية وظهورها فى شكل آخر عوامل مادية . فالمعروف أن التوسير وجماعته يعتبرون المستوى الاقتصادى هو الثابت البنيوى الذى يقوم بدور اساسى فى كل بنية اجتماعية . اذ انه هو الذى يتحكم فى تحديد المستوى الذى يلعب دور الهيمنة اى المستوى الذى تنعكس فيه تناقضات البنية الاجتماعية « فعلاقات الانتاج هى التى تحدد هيمنة هذا المستوى او ذاك . فهى اذن تتمتع بفعالية عامة وفى تحديد التنظيم الاجتماعى ما دامت تحدد تلك الهيمنة ، وتحدد من خلالها التنظيم العام للمجتمع (54) .

ليس هناك اذن عند التوسير نفى لعلاقة هذا المستوى بالآخر وليس عنده مفهوم صورى عن الايديلوجية . كل ما فى الامر أن بحثه حول الايديلوجية لم يخرج عن المستوى النظرى . ان العيب الذى وقع فيه التوسير هو أنه اعتقد انه اعطانا نظرية عامة عن الايديلوجية ، فى حين ان بحثه اقتصر على دراسة (نمط الانتاج النظرى للايديلوجية) . وهو قد ادرك هذا فى نقده الذاتى واعترف به الا أنه لم ينكر أهمية بحثه بل عاب على نفسه فحسب اقتصاره على جانب معين من الدراسة العامة حول الايديلوجية . فكما أن من حق الباحث الابستملوجى ومؤرخ العلوم

ان يدرس (نمط الانتاج النظر للعلم) ويبحث عن الآليات التي نتحكم في انتاج التصورات العلمية ، دون أن يقع في النزعة الصورية ، بالرغم من عدم اهتمامه بالظروف الاجتماعية لنشأة العلوم ، فبالمثل ، ربما كان من حق التوسير أن يتساءل عن طبيعة نمط انتاج المفاهيم الايديلوجية دون أن يهتم بالروابط المادية التى تتحكم فى ذلك الانتاج . صحيح أن ذلك البحث يبقى جزئيا ناقصا وليس هو نظرية عامة عن الايديلوجية ولكنه مع ذلك بحث ضرورى ومستوى معين من المستويات التى يلزم أن تطرح فيها الدراسات حول الايديلوجية . ذلك لاننا أوضحنا فى بداية عرضنا بان ميكانيزمات مستوى معين من مستويات اية تشكيلة اجتماعية لا تكون بالضرورة صدى لميكانيزات المستويات الاخرى . فالكل الاجتماعى عند التوسير لا أحادى التحديد وليست مستوياته تتحدد بعنصر واحد وبالتالى فهى لا تخضع لنفس الآليات . وهذا ما يبرر ضرورة البحث فى الآليات المتحكمة فى كل مستوى على حدة، دون أن يعنى هذا بالطبع فصلا وجوديا بين المستويات الموجودة . ((فنوع الوجود التاريخى لمختلف المستويات لا يكون هو هو))(55)

هكذا فلا يبدو أن ما يذهب اليه باديو وبالمس من اتهام التوسير باللامادية أمر يسهل قبوله . وما القول الآن فى (لا جدليته) ؟

يرى المؤلفان أن كل نظرية حقيقية عن الايديلوجية ينبغى أن تفهم ((الايديلوجية على أنها عملية متناقضة وأن تدركها بالرجوع الى التحولات الحقيقية)) (56) غير أن الوصف الالتوسيرى فى نظرهما ((لا يسمح لنا بفهم القانون الداخلى لتغير العلاقات بين القوى الايديلوجية)) (57) ومن هنا اتت صوريته . ذلك أن المنهج العلمى يقتضى ((فهم الحركة التى تنشأ الايديلوجية بمقتضاها على ارض الوقائع المادية للتاريخ)) (58) وأن عيب التوسير هو كونه درس الايديلوجية فى انغلاقها النظرى . هذا فى حين أن ((ادارك الايديلوجية كعمليات لا كيمكانيزم وهى منغلق

على ذاته ، أن ذلك الادراك هو التوجيه العلمي الذي يرشدنا اليه ماركس . لكن ألتوسير يقلب اتجاهه . وأن نظرية عن الايديلوجيه لا يمكن أن تخرج عن القانون الجدلي العام وهو ان تسمح بتفسير تطور القوى التي تدخل في الصراع. آن الايديلوجية لا تفهم الا كمجال للصراع المتجذر في التعبير عن العلاقات المادية » (59).

هاهنا ايضا يعيب المؤلفان على ألتوسير كونه لم يحاول صياغة نظرية عامة عن الايديلوجية تسمح بتفسير تطور القوى التي تدخل في الصراع وكونه اقتصر على دراسة نمط الانتاج النظري للايديلوجية والبحث عن الفوارق التي تميزه عن نمط الانتاج النظري للعلوم . فيبدو اذن نهما يرددان نفس الحجة السابقة آنه يكفينا ان نقول من جديد ن نمط الانتاج النظري يتمتع بنوع من الخصوصية ولا يعكس نفس الآليات آلتي تخضع لها أنماط الانتاج المادي .

غير أن الامر لا يقف عند ذلك ويظهر أننا حتى أن سلمنا مع ألتوسير ، بضرورة قيام دراسة خاصة لنمط الانتاج النظري للايديلوجية فان تلك الدراسة لا ينبغي أن تغفل العنصر الجدلي في الصراع الايديلوجي . و « أن أية نظرية ماركسية عن الايديلوجيه ينبغي عليها بالضرورة أن ترتكز على نظرية حول التناقضات الايديلوجية ، نظريه تدرس الصبغة الانقسامية للتمثلات الايديلوجية . وآن مفهوم الانقسام مفهوم محايث للمفهوم العلم للايديلوجية . لكن ألتوسير على العكس من كل ذلك يقول بالبساطة المنغلقة على ذاتها وينادي بالوحدة والهوية والماهية اللاتاريخية للايديلوجية » (60) .

هذا يعني أننا حتى ان بقينا داخل مستوى معين من مستويات التشكيلة الاجتماعية فلا ينبغي أن نغفل عنصر التناقض

فيه . صحيح ان التوسير يتحدث ، على صعيد المستوى النظرى، عن اقطاب ثلاثة داخلة فى صراع تتفاعل فيما بينها ويحدد بعضها البعض فليس نمط الانتاج النظرى للايديلوجية منغلقا على ذاته كما يزعم المؤلفان وقد رأينا أنه يتحدد بتفاعله مع نمط الانتاج النظرى للعلم والفلسفة . لكن العيب الذى يبدو أن ألتوسبر وقع فيه هو اغفاله للتناقضات الداخلية ، لا بين العلم والايديلوجية والفلسفة ، بل بين الايديلوجيات ذاتها . لقد رأينا أن الايديلوجية عند ألتوسير تتحدد فى تفاعلها مع العلم والفلسفة ولكننا لم نر أنها تتحدد كذلك بفعل حركتها الداخلية تلك الحركة التى توجد داخل نمط الانتاج النظرى الايديلوجى ذاته ، والتى تقوم بين الايديلوجيات الموجودة فى مجتمع بعينه . ونحن نستطيع أن نصوغ انتقادنا بلغة ألتوسير ذاته فنقول أنه لم يطبق مبدأ لا احادية التحديد عند دراسته لنمط الانتاج النظرى للايديلوجية فلو كان الامر يتعلق مثلا بدراسة نمط الانتاج النظرى للعلم لما اقتصرنا على دراسة علاقة العلم بالايديلوجية والفلسفة اذ أن العلم لا يتحدد فحسب بفعل تلك العلاقة بل يتحدد ايضا بالظروف المادية التى ينشا فيها ، وداخل الانتاج النظرى ، فانه يتحدد كذلك بآلياته الخاصة أى بالعلاقة بين العلوم ذاتها بل ان كل علم يتحدد ، هو ذاته بميكانيزم خاص وربما ذهبنا مع باشلار الى القول بان كل مفهوم يخضع لاليات معينة . لماذا اذن لا تتعدد التحديدات (النظرية) عند دراسة الانتاج النظرى للايديلوجية ؟ لان صاحبنا يغفل الصراع الجدلى الذى يقوم داخل المستوى الايديلوجى ذاته ويقف عند الصراع الذى يقوم داخل المستوى النظرى لا عن ايديلوجيات ، ولانه يعتبر الايديلوجية السائدة هى وحدها التى (توجد) فى المجتمع وتفعل فيه . وربما لهذا السبب امكنه أن يقول أن وظيفة الايديلوجية هو ان تعيد انتاج علاقات الانتاج . ونحن نعلم أن هاته ليست وظيفة كل ايديلوجية وانما

هو امتياز الايديلوجية السائدة التى تعبر عن طبقة تمتلك وسائل الانتاج المادى والنظرى وتتحكم فى علاقات الانتاج النظرية والمادية غير أن التوسير يتكلم عن الايديلوجية ووظيفتها الاجتماعية كما لو كانت كل ايديلوجية ايديلوجية سائدة او على الاصح كما لو لم تكن هناك الا ايديلوجية واحدة وكما لو لم يكن هناك تناقض على المستوى الايديلوجي . هاهنا يبدو لنا ألتوسير مغفلا للتناقض الداخلى الذى وجد بين الايديلوجيات لا يقرا ما هو خفى ويقف عند المباشر ليعتبر أن ما هو سائد مهيمن هو المحدد والمحدد وحده وليست هاته نزعة صورية كما يذهب باديو وبالمس بل انها نزعة اختبارية .

ثم ان التوسير يغفل ما يصح ان نطلق عليه هامشية المستوى العلمي كمحدد من محددات (نمط الانتاج النظرى) . صحيح أن القطيعة آلتى يحدثها قيام اشكالية علمية مع الاشكالية السابقة عليها هي كشف عن ماض ايديلوجى ، وهى بالتالى لحظة من لحظات الفعالية العلمية على المستوى النظرى . ولكن القطيعات ليست تتكرر دوما . وعلى هذا فان فترات تدخل العلم فترات محدودة معدودة . لقد كان قيام الفيزياء الغاليلية فرصة لاعادة النظر فى بعض المفاهيم الاساسية التى كانت تسود الفكر القديم والوسيطى . فلم تعد الطبيعة مغلفة بغلاف ايديلوجي اخلاقى ولم تعد المادة تتمتع بخصائص حيوية . فكان ذلك تدخلا للحظة العلمية وفعالية للمستوى العلمى . ولكن هذا المستوى سرعان ما تتوقع فانعزل العلماء ليصنعوا طبيعة علمية جديدة غريبة عن الممارسة الاجتماعية ولم تحدث المنعرجات والتنقيحات Refontes التى عرفها علم الفيزياء نفس التحولات التى احدثتها القطيعة . فاذا كنا لا نتعامل مع الطبيعة بالكيفية التى كان يتعامل معها الاقدمون ، واذا لم تكن المادة عندنا هي مادة ارسطو التى تنتقل من الوجود بالقوة الى الوجود بالفعل ولا مادة

الاغريق المكونة من اربعة عناصر واربعة فحسب ، فهى مع ذلك ليست هى المادة الالكترونية التى تتعامل معها الفزياء المعاصرة. ان كان تدخل اللحظة العلمية ذا فعالية كبرى عند القطيعة فان فعاليته قد ضعفت بعدها خصوصا وأن الممارسة العلمية سرعان تتوقع وان الوعى العلمى سرعان ما يصبح هـامشيا بالنسبـة للصراع النظرى . ذلك ما يفسر الضجة المؤقتة التى عرفها تاريخ المعارف . فاذا كان الفيثاغوريون قد رموا بعضو من طائفتهم فى النهر عندما (اكتشف) الاعداد الجذرية واذا كان غاليليو قد حوكم من اجل اكتشافه العامى واذا كانت الكنيسة قد (انزعجت) من انتشار نظرية التطور ، فان المنعرجات التى عرفتها الرياضيـات سواء عند اكتشاف الجبر او الهندسات اللااوقليدية او نظريـة المجموعات والتى عانتها الفيزياء سواء عند اكتشاف الكهرباء او الذرة ان هاته المنعرجات لم تتخذ نفس الاهمية التى اتخذتهـا القطيعة . فاللحظة العلمية . لا تعرف دائما نفس المجد الـذى تعرفه عند ميلاد العلم وتخليه عن ماضيه الايديلوجى . هاهنا اذن يبدو كل تمجيد للعلم واعتباره قطبا أساسيا فى تحديد نمط الانتاج الايديلوجى شيئا مبالغا فيه . لا يعنى هذا بالطبع نفى اهميـة الانتاج العلمى ولا انكار دور القطيعات الابستملوجية . كل مافى الامر ان الايديلوجية سرعان ما تقوم بنوع من التجاوز للقطيعـة وتتغذى عليها وتستفيد منها وتتكيف معها لتنحى العلم وتبعـده عن ميدان الصراع . وحينئذ لا يعود الزوج الاساسى ، حتى على المستوى المعرفى وحده ، هو العلم والايديلوجية وانما هو الفلسفة والايديلوجية .

هذا التمجيد للعلم وهذا الاعلاء من دوره النظـرى عنـد التوسير هو ما سمح لنا بان نتحدث فى البداية عما اطلقنا عليـه (نفحـة وضعيـة) ./.

الهــوامش :

1) S. Karsz : Théorie et politique : Louis Althusser p. 40 Fayard.
2) Althusser - Pour Marx. p. 238 F. Maspero - Paris.
3) Idéologie et apparcils idéologiques d'état. in La Pensée N° 151 - Juin 1970 repris dans Positions.
4) Pour Marx - opcité - p. 240.
5) ibid. p. 239.
6) G. Bachelard. Le Nouvel esprit scientifique p. 11 P.U.F.
7) L. Althusser. Livre le Capital T 1. p. 62 F. Maspero.
8) Pour Marx - opcité p. 238-9.
9) A. Badiou le «re» commencement du mathialise dialectique in critique N° 240 1967.
10) N. Poulantzas. Pouvoir politique et classe sociales. T. II p. 15 - Maspero.
11) Karsz - op cité p. 127.
12) Hegel - Leçons sur l'histoire de la philosophie p. 134. Trad Gi-belin Gallimard 1954.
13) Althusser. Pour Marx op cité p. 209.
14) ibidem.
15) E. Terray. Le marxisme devant les sociétés primitives. p. 173. F. Maspero.
16) Poulantzas. op cité p. 27 - 28

17) ibid p. 28
18) Althusser. Idéologie et appareils. art cité.
19) T. Herbert. Pour une théorie générale des idéologies in. Cahiers pour l'Analyse N° 9 été 1968 p. 77
20) in La Pensée N° 113 - 1964.
21) M. Godelier. Horizon trajets marxistes en anthropologie p. 190 - Maspero. Paris 1973
22) G. Bachelard. L'activité rationaliste de la physique contemporaine. p. 4, P.U.F. 1965
23) Bachelard. dialectique de la durée p. 63. P.U.F.
24) Althusser. Livre le capital T I p. 42. F. Maspero.
25) G. Bachelard. Le rationalisme appltqué. p. 103. PVF
26) Althusser. Livre le capital T 1 p. 49.
27) Marx Contilution à la critique de l'économie politique. p. 165. éd sociales.
28) Livre II T 1, pp 222-23 éd. sociales
29) M. Godelier : op. cité p. 191.
30) J. Rancière. La leçon d'Althusser. p. 236. coll idées. gallimard - Paris.
31) Poulantzas. op cité p. 29.
32) ibid p. 28.
33) L. Althusser. Elements d'antocitique. pp 112-3 Hachette. 1974.
34) G. Buis dans l'ouvrage collectif : Les idéologies dans le monde actuel p. 46 centre d'études de la civilisation contemporaine. Desclée de Brouwer. 1971.
35) Althusser : Pour Marx op cité p. 168
36) M. Godelier op cité p. 305.
37) A. Tosel dans l'ouvrage collectif les idéologies dans le monde actuel p. 228.

38) L. Althusser. Philosophie et philosophie spontanée des savants p. 26. Maspero Paris 1974

39) G. Buis : ds l'ouvrage collectif cité ci-dessus. p. 35.

40) G. Buis. op cité p. 37.

41) J. T. Desanti : Introduction à l'histoire de la philosophie pp 166-7. critique 1956. Paris .

42) M. Amiot dans l'ouvrage collectif cité ci-dessus p. 52.

43) Elemets d'autocritique op. cité pp 41-2.

44) ibid p. 44

45) ibid pp 14-15

46) ibid p. 48

47) ibid p. 51

48) A. Badiou et F. Balmès : De l'idéologie p. 30 F. Maspero Paris 1976.

49) ibidem.

50) ibid p. 30

51) ibid p. 32

52) ibidem.

53) ibidem.

54) M. Godelier op cité p. 44

55) Althusser. Livre le capital op cité p. 119

56) Badiou et balmès. op cité p. 34.

57) ibidem.

58) ibidem.

59) ibid p. 35.

60) ibid p. 36.

المادية الجدلية ومفهوم التطور (3)

البيولوجيا ومفهوم التطور

عبد اللطيف الشقورى

1 — منطق التطور

ارتبط مفهوم التطور بالبيولوجيا كاشكالية اساسية . ويبدو أن هذا الارتباط منسجم تمام الانسجام مع الموضوع بالرغم من وجود تعدد الاختلافات والاجابات حول هذا المفهوم ذاته . وسنحاول فى البداية تركيز العرض والتحليل على نوعية العلاقة بين البيولوجيا والتطور : اذ ما الذى يبرر طرح السؤال فى اطار البيولوجيا ؟ وهل ثمة تطور ؟

أن البيولوجيا فرع من العلوم التجريبية التى تهتم بدراسة الكائن الحى من جهه و ظاهرة الحياة من جهة أخرى . وهذا المنظور العام يحاول الكشف عن الآليات التى تشترط ظاهرة الحياة . بتفاعل الكائن الحى مع محيطه وبيئته . الا أن هذا التفاعل ليس حالة جامدة للعضوية ، بل حالة دينامية وحركية تتشكل فى مظاهر متعددة ملموسة تختلف كل الاختلاف عن الكائن

انظر : أقلام العدد الرابع — يبراير 1977

الجامد . فاذا ما استحضرنا خصائص هذا الكــائن الحى فى تركيبه الكيميائى العضوى الشديد التعقيد ، أو فى بنيته الخلوية باعتبارها العنصر الرئيسى فى تشكيل وحدته التشريحية ، ألفينا هذه العناصر متداخلة فى تسلسل زمنى تبتدأ بحياته ، وتنتهى بموته اذ أن الكائن الحى يفصح بيولوجيــا عن تطوره مــن خلال المراحل التى تفرضها الحياة على عضويته . ويبدو فى هذا جدلية تطورية بين الكائن الحى والحياة . فاذا كان التطور مسيرة تتبلور فيها ظواهر الحياة (انتاج ــ ولادة ــ نمو ــ تغذية ــ موت ... الخ) فثمة تحديد خصوصية هذه الظواهر صياغة المادة فى تطورها عبر ملايين السنين . اذ أن البيولوجيا عندما تؤطر بكائن الحى وتضعه موضــع الدراســة لا تجعلــه موضوعا مفارقا تتحكم فيه قوة ميتافيزيقية غير قابلة لاى تحديد، بل تلمسه عيانيا كخصوصية مادية تشكل منطقا شديد التعقيد . ولهذا فالبيولوجيا عندما تقتحم اشكالية التطور فى بنيتها العامة لا ترتاى من وراء ذلك الضبط النهائى لهذا المنطق اذ أن فى ذلك طموحا علميا ما زالت البيولوجيا تتلمس الطريق وصولا اليه . فهى كما يصرح أحد الابستمولوجيين : ((لم تعد تبحث عــن الحقيقة ، بل تؤسس حقيقتهــا)) .

ويبدو أن التطور على صعيد البيولوجيا يمنون ذاته كثورة تجسدت فى العلوم الطبيعية وقفزتها الابستمولوجية . فقد برهنت من خلال ما توصلت اليه من قوانين على مستوى المادة ، معطيات أصول علمية رائدة . ولست أود استقصاء الجذور التاريخية ــ الاجتماعية لهذه الثورة ، بقدر ما اود الافصاح عن علاقة لا يمكن ادراكها الا فى اطار تداخل العلوم وتكاملها . فالبيولوجيا لم تكن تستطيع تفسير ظواهر الحياة ، وعلى الاخص منها ظاهرة التطور التى تؤطر الكائن والحياة معا ، لو لم تستبعد من علوم أخرى ، كالفيزياء والكيمياء ، خاصة هذه الاخيرة التى تمكنت من ضبــط

بعض الظواهر وصياغتهـا فى قوانين ، كشفت عن العمليـات الفيزيو ـ كيماوية physico-chimique التى تحتويها . الا ان التطور فى البيولوجيا كمنطق ومفهوم يزيد من حـدة تعقيـد (ماهية) الحياة ، و (ماهية) التطور ، فهل اكتشـاف بنيـة الـ ADN (1) هو الذى يضيق من مساحة البعد بـين الكائن الحى ، والمادة الجامدة ؟ أم : أن ثمة اشكال يختفى وراء المضوية ؟

يجب بادىء ذى بدا الاشارة الى الاكتشافات النظـريـة والمنهجية ، التى قدمتها علوم ترتبط بعلاقة وطيدة مع البيولوجيا كعلم الحيوان Zoologie ، وعلم الاحاثة Paléantologie ، ثم ما قدمته أعمال التشريح المقارن لنظرية التطور . والـذى يهمنا أكثر هو علم الاحاثة ، اذ كان له السبق من حيث اثبات بوادر أولية للحياة تجلت فى شكل لافقريات دنيا des invertebrées التى تبتدىء بها سلسلة التطور . هذه اللافقريات التى اذا مـا أخضعنـا بنيتها العـامة لعمليـة تشريحية الفينـا تطورهـا العضوى قاصرا عن استيعاب نفس التطـور لدى الثـدييـات Les Mammifères ، باعتبارها انواع أرقى فى سلم التطور. فعلم الاحاثة اعطانا فى هذا الصدد تصنيفا عبر الطبقات الرسوبيـة منفذة تنفيذا حسب الانتشار النوعى للكائنات التى عاشت فـى غابر الازمات . ومن خلال هذا التنفيـذ أمكننـا استخـلاص مستويات التطور التى هى مراحل زمنية تقدر بملايين السنين ، حتى ظهور النوع الشبيه بالانسان فى فصيلة الرئيسيات Primates مما حدا بـ Darwin فى دراسات تتبع النوع ان يصل الى

---

1 — Structure de l'ADN و هى اختصار للاسم العلمى التالى : Acide Désoxyribonucleique . وهى الحاملة لخصائص تطور العضوية وأصل الكائن الحى . وهى بنية ثابتة لدى كل الكائنات الحية بما فيها الانسان .

وضع فرضيته عن الانسان الذى انحدر من سلالة شبيهة بالقرود. ويبدو أن التصنيف عن طريق الاحفور باور أكثر فكرة التطور من جهة ، ثم فكرة الانواع وتصنيفها من جهة أخرى ، وقاد الى استنتاج أساسى عبر عنه احد البيولوجيين المحدثين J. Monod (1) قائلا بأن : « كل كائن حى يعتبر أحفوراً ، اذ يحمل فى ذاته، بل وحتى فى بنيته المجهرية لبروتيناته بقايا انحداره »

غير أن ثمة علاقة أخرى تربط بين الكائنات العضوية لمحيطنا الحيوى ، هذه العلاقة تتمثل فى التطور المستمر لدى الفقريات Vertebrés حيث يبرز فى الطبقات الجيولوجية القديمة التصنيف التالى : الاسماك ، البرمئيات ، الزواحف ، الطيور ، ثم أخيرا الثدييات ، وهذا التدرج احتاجت فيه الانواع لملايين السنين حتى يتحقق فى العالم العضوى تقدما خالقا حسب النظرية الداروينية فبالانواع التى انحدرت من بعضها الاخير انقرض معظمها ، وأصبحت تحتوى على بنية مورفولوجية تتكيف مع عضوية جديدة لم تكن من احدى خصائصها من قبل ، حيث أن : « هذا الجديد هو فى العمق قفزة او طفرة فى السلسلة الغير المنقطعة لتطور الانواع » (2)

فمن اللافقريات الى الفقريات استخلص التطور فى مسيرته ومنحاه عناصر جديدة ، انضافت الى النوع فى نشوئه وترتعه ،

J. Monod « Le hasard et la nécessité » essai sur la philosophie naturelle de la biologie moderne
Ed. du Seuil 1970
ص 203 - وسنعتمد كثيرا على هذا الكتاب فى عرض وجهة نظر البيولوجيا المجهرية .

(3) G. Gourev «Darwinisme et religion» La lutte idologique au biologie
Ed. en langues étrangères
Moscou 1960 ص 62

الا أن هذه الاضافات هي ((تاريخ تغيرات)) لن تعي خصوصيتها البيولوجية الا على مستوى تطور الانسان (4) . الا ان ثمـــة خصوصية اكثر عمومية وتجديدا ترتأى في التطور البيولوجـــي والتطور الكوني مبدأ عاما يوحد التطور داخل سياق عام لايمكن تجزيئه . هذا المفهوم تاخذ به الماركسية سواء في الصياغـــات المبكرة المادية الجدلية عند ((أنجلز)) Englès ، او في الكتابات النقدية للعلوم عند ((لينين)) Lénine ، ((فانجلز)) يبرز فـــي كتابه ((جدليات الطبيعة)) اهمية الاكتشافات الثلاثة في تطور العلوم التجريبية : اكتشاف نظرية الخلية باعتبارها وحدة اساسية في تطور الكائن الحي النباتي والحيواني ، بحيث تتبلور هنا وحدة التطور وفق نسقية مشترك عام ، لا يحقق فقط تسلسل التطور عفويا ، بل يبرز قابلية الخلية في احداث تغيير نوعي . والى جانب هذا الاكتشاف على مستوى الكائن الحي نجد اكتشافا ثانيا على مستوى الطبيعة الجامدة تبدى في نظرية تحول الطاقة ، واهمية آليتها في حركية الظواهر الغير العضوية . فعنصر الطاقة في مختلف تجلياته ومظاهره ساعد على تفسير حركة الكون ، والتغيرات الكمية والكيفية التي تتمظهر فيها سيرورة التطور . الا ان الاكتشاف الاساسي الذي كان حاسما في عملية التطور عند ((انجلز)) هو ما يسميه بـ ((البرهان الشمولي)) الذي حققته نظرية ((داروين)) Darwin التي ارتأت ان جميع الكائنـــات العضوية بما فيها الانسان هي محصلة تطور انبثق من الوحدة الخلوية ذات الاصل (البروتوبلازمي) ، والبنيـــة الفيزيـــو ـــ كيماوية من حيث التركيب (ولـــو ان ((داروين)) حسب ((الداروينية المجهرية)) Darwinisme moléculaire لم يصل الى فهم عناصر هذا التركيب الفيزيو ـــ كيماوي لتاخر علوم عصره)

---

4 ـــ سنتطرق في هذا الفصل ذرته الى علاقة التطور بالانسان .

اما لينين Lénine الذى اهتم بابستمولوجيا العلوم الفيزيائية محاولا نقد مثاليتها الفلسفية ، فنجـد لديـه بعـض الاشارات التى ترسم الوجود الموضوعى من خلال تطوره المادى ليبرز فى الاخير التمييز بين المادة كمقولة فلسفية ، والمادة كمقولة علمية . اذ أن الاولى تعبير عن وجود موضوعى مترابط فى وحدة كلية وصل الى أعلى تعبير له فى عضوية الانسـان من خـلال المعرفة والممارسة ، اللذان هما عملية سيرورة ونمو جدلى . فالتطور فى اطار المادية الجدلية سيصبح بعدا مضافا للفاعليـة الانسانية التى تتحكم فى هذا التطور ذاته بفضل تطور العلوم ، وذلك نحو تعميق تاريخ التغيير داخل وحدة الكون : « اذ ان المبدأ العام للتطور يجب ان يكون موحدا ، مرتبطـا ومشدودا بالمبدأ العام لوحدة العالم والطبيعة ، والحركة والمادة » (5)

فهل نستطيع القول بان البيولوجيا تمكنت من تحـديـد منطق للتطـور ؟

نبادر الى القول بان مسالة ايجاد منطق للتطور تدور كجدل علمى فى اطار تعميق السؤال ، اكثر مما تحاول اعطاء صياغة نهائية له . فاعطاء جواب عن هذا الاشكال غاية فى الصعوبة، لا لان العلم عاجز عجزا مطلقا عن ذلك ، بل لان مضمون معرفتنا من الناحية النظرية والتجريبية ما زال جد قاصر امام ما يسميه J. Monod بلغز الاصول فى الرمز التكوينى ، سواء علـى صعيد الكائنات الحية فى التطور ، او على صعيـد الانسان فى وظيفة جهازه العصبى المركزى . فالبيولوجيا ما تزال تبحث بدورها عن « ذرتها » . اذ أن ضبط منطق يحتوى فى داخله على ابعاد جد معقدة ، واعطاء معنى تاطيرى لظـاهره كالتطـور ، يلزمنـا فى الوقت نفسه استحضار قرائن كاملة ينبغى تحديدها . فالتطور

5 — لينين « الدفاتر الفلسفية » ص 57 دار الحقيقة — ترجمة اليـاس مرقص 1971 .

كاشكالية اساسية فى صميم البيولوجيا ليس فقط هو هذا التاريخ كحركة المادة العضوية وهى تنمو وتتطور عبر ملايين السنين فحسب ، بل ثمةما هو اعقد من حركة التطور كامتداد زمانى ، هذا الاعقد هو العمق الابستمولوجى ، البيولوجى للتطور ذاته : اذ ما هو التطور ؟

ان النظريات البيولوجية التى تصدت للاجابة ، حاولت ان تجيب باحياء مفهوم اساسى فى النظرية الداروينية : الانتقاء الطبيعى La Selection naturelle . يتجلى ذلك من خلال هذه النماذج الحديثة فى البيولوجيا التى سنتطرق الى وجهة نظرها فى الموضوع . ويتعلق الامر ، اولا بما يسمى «الداروينية الجديدة» المتمثلة فى اتجاهات البيولوجيا الانجلو ـ سكسونية خاصة منهم اصحاب نظرية : التاليف التطورى من جهة ، ثم نظرية البيولوجيا المجهرية Biologie moléculaire أو السبرنطيقا المجهرية Cybérnétique moléculaire من جهة ثانية .

يعتبر العالم الامريكى « جورج غايلور سمبسون G. G. Simpson » (6) أشهر المدافعين عن ما يسمى : « بالتاليف التطورى » . فاتجاه التطور عند اصحاب هذه المدرسة لا يمكن استيعابه ولا فهمه اذا اتخذ من مسيرته سياقا واحدا ، هو فى الغالب سياق الانتقاء الطبيعى La selection naturelle ، فهذا المفهوم يحد من تلقائية التطور ويقيدها ، اذ : « الاتجاه التطورى لا تحدده سياقات خارجية ولا سياقات داخلية ، منفصلة . انه عقدة من العوامل والقوى ، خارجية وداخلية ، تفعل وتتفاعل بصورة مستمرة ، وبطريقة جد معقدة لكنها موحدة (7) وليست

---

6 ـ « آفاق الفكر المعاصر » نصوص مختارة تحت اشراف Gaëtan Pican ـ ترجمة لجنة من الاساتذة الجامعيين 1965 ـ قسم البيولوجيا ـ .

7 ـ ص 792 من نفس المصدر .

السياقات الداخلية للتطور سوى التعقيدات التكوينية Génétique للمعنى الوراثي في تشكيل العضوية ، سواء من داخل تنظيماتها في زمرة العناصر التي تقود الانتقاء التطوري أو في عامل آخر يعتبر عند هذه النظرية رئيسيا : التكيف . فالعامل الوراثي المدعم علميا بالمفهوم الداروينى ليس هو كل مسيرة التطور ، اذ ثمة اعتبارات لاحتمالات نجهلها ولا نستطيع ان نبنى فروضنا على عدم يقينيتها ، فالعمل : ((ليس وليد الصدفة والذى يوجه سياق التطور ، يتمثل بصورة معقولة في التكيف))(8). ان هذه النظرية مع اعترافها وتاكيدها على عامل التكيف تبتعد عن تاطير التطور في صيغة واحدية Monisme بيولوجية ، فكل تفسير من هذا القبيل هو تجميد لحركية التطور ، وحد لاتجاه في مدلول لا يشكل سوى جانبا من الموضوع . الا أن جمهرة كبيرة من البيولوجيين لا يعطون للتكيف هذا المعنى في تحديد مدلول التطور وسياقه ، بل لا يرون في عملية التكيف سوى الانتظام ذاته للعضوية ، ((فالبير فانديل « Albert Vandel » يرتأى أن هذه الاشكالية ما زالت تحتل في البيولوجيا الحديثة علامات استفهام كبيرة ، فالتكيف غير مفهوم بل ومغلق على نفسه ، اذ مازلنا نجهل التحولات التى قادت العضوية الى تكيف جديد أكثر مرونة وتطورا ، كالمشى ، والسباحة ، والطيران ... الخ . وحتى علم الاحاثة La paléantologie في هذا المجال لم يعطنا الصورة الواضحة التى تنتج تحولات تطورية . وذا يكون التكيف في هذه الحالة الجانب الذى ينتظم فيه الكائن الحى في مجموع علاقاته الوظيفية مع محيطه الحيوى ، والكائنات التى يتفاعل معها ، فهو مشكلة : ((تكوين الانتظام الملحوظ في وجهه الوظيفي)) (9) هذه المشكلة التى تعود أصلا الى اشكالات علم الاجنة .

8 — المرجع السابق ص 794

9 — ص 794 م — س

فالتكيف كحالة للعضوية يكاد يكون مستحيلا بمجرد تأثير عوامل خارجية عن الكائن الحى اذ لا يمكن ان نتصور اثناء مرحلة التطور وفتراتها جمودا وسلبية لهذا الكائن باعتباره تكوينات داخلية . فتحوله فى عمقه خاصية وظيفية تعود اساسا لانتظام فى عضويته كداخل . أما Lucien Cannot فيولى الاسبقية لما يسميه : « المؤهل للتكيف »، اى استعدادا سابقا للتكيف ، وهو : « مزايا لا يمتد بها أو نصف مفيدة ، تظهر فى جنس من الاجناس ، وتكون قابلة لان تصبح تكيفات أكيدة ان كان هذا الجنس يتلاءم مــع مناخ جديد أو يكتسب سجايا جديدة أن هذا التبدل يصبح ممكنا بفضل وجود « المؤهلات للتكيف »(10) . وقد أيد هذا المفهوم (ج. غ. سمبسون) واعتبره حالة واقعية ، الا أنه فى نظره لا يعطى عمومية التفسير الذى تحتــاج اليه النظرية العلمية ، بيد انه وبالرغم من ذلك يبين خصوصيـــة معينة فى التطــور . والوقائع العلمية للبيولوجيا أثبتت فعلا ان مفهوم Cannot هو ظاهرة عامة . ونخلص من هذا الى ان اشكالية التطور فى حدود نظرية التاليف التطورى دخلتها تعديلات اســاسية لــدى أصحاب مدرسة الداروينية ــ المجهرية Darwinisme-Moléculaire الذين يعطون للتطور حلا آليا . الا ان جل آراء علماء البيولوجيا لا يمكن جمعها حول صيغة محددة لمفهوم ومنطق التطور ، بالرغم من أننا نجد لدى هذه المدارس فرضيات تعطى الاولوية لاحــد العاملين : البيئى الخارجى ، أو الوراثى الداخلــى ، بحيــث نستشف من خلال التركيز على التعبير بالعامل الواحد حتميــة تفسيرية ، الا أن هذه الحتمية لا تضع الحدود الفاصلة ولا تجعل التفرقة بين هذين العاملين تفرقة حاسمة ، فاثبات عامل معين لا يعنى نفى بقية العوامل .

---

10 ــ ص 795 م ــ س

2 — البيولوجيا المجهرية وآليات التطور .

وربما كانت البيولوجيا المجهرية Bio-Moléculaire احد الفروع التخصصية الحديثة فى أطار البيولوجى التى تطمح أبستمولوجيا لايجاد جواب عن سياق التطور . فقد احدثت ثورة بيولوجية فيما كان يعتقد من قبل أفكارا تتصف بالشمول والاستمرار ، وهذه الثورة ابتدأت بالضبط مع نظرية الخلية La théorie Cellulaire باعتبارها وحدة أساسية نجدها لدى كل الكائنات الحية . فبهذه النظرية تمكنت البيولوجيا حسب تعبير F. Jacob (11) من أن « تكتشف ذرتها » . ويمكننا أن نتتبع معه هذا التقييم لمجالات تطور البيولوجيا ، التى يحصرها فى أربع تنظيمات بنيوية تتفرد كل بنية بخاصية تطور أعلى (12) . فمنذ مطلع القرن السابع عشر تشكل ما يمكن تسميته ببنية النظام الاول : وفيها تم ترتيب مستويات الرؤيا العلمية التى بدأت تتجمع من خلال بعض المعلومات ، وكان ينبغى انتظار نهاية القرن الثامن عشر ، فى بنية النظام الثانى الاكثر تنفيذا ، والذى كان يتضمن العضو والوظيفة ، وانتهى باكتشاف الخلية . بعد ذلك ومع مطلع القرن العشرين : الكروموزوم والمورثات بنية النظام الثالث التى كانت مختبئة فى قلب الخلية . وأخيرا بنية النظام الرابع التى أتت فى منتصف هذا القرن مع البيولوجيا المجهرية ، واكتشاف بنية ما يسمى بـ ADN والتى هى أصل الكائن الحى ، ومنها تنبثق عضويته بكل خصائصها الثابتة والمستمرة عبر الاجيال. وهذا تحول أساسى حدث فى منظومة علم الوراثة ، اذ تحولت

---

11 — من بين الباحثين الاساسيين فى معهد باستور بفرنسا ضمن مجموعة J. Monod . له كتاب أساسى : « La logique du vivant »

(12) «Jeux et enjeux de la science» — Pierre Thuillier
Essais d'épistémologie critique
Ed. Robert-Laffont 1972

هذه المنظومة تحولا جذريا مع المعطيات الحديثة داخل فرع تخصصي جديد : البيولوجيا المجهرية ، هذا الفرع الذى تمكن من استيعاب وضبط يتحكم فى ابنيــة المجهرية ، المسؤول الاول عن الوراثة . ولم تتمكن البيولوجيا المجهرية من اعطــاء هــذه النتائج الثورية على مستوى التطور العلمى الا من خلال مراحل اساسية ، كان لابد منها للوصول الى فهم ما ينطوى عليه الرمز التكوينى . فاذا ما استحضرنا بعض هذه المراحل الفيناها نبدأ مع ابحاث Muiler (جائزة نوبل 1949) التى بينت ان الاشعة × تزيد زيادة ملحوظة فى معدل التحولات (100 مرة). وكانت بمثابة ارضية لابحاث اكثر شمولا داخل التكوين البنيوى للخلايا . اذ بينت ابحاث Beadie et Jatrim (جــائزه نوبــل 1959) فى نظريتهم (Une enzyme-gène المورث والخميرة) النمط الذى تتحدد عن طريقه عملية الجنيات أو المورثات . بيد أن الاســم ما لبث أن تبلور اكثر مع تقدم التجارب على انواع البيكتريـــا Les bactéries ، حيث اتضح ولاول مرة أن بنيه الــ ADN هـــى المسؤول الاول عن الوراثة ، وكل التطورات التى تلحق بالكائن الحى (13) . وتلى ذلك أبحاث كل من Watson et Crick (جائزة نوبل 1962) من جامعة « كمبردج »، اذ توصلوا الى معرفة ترتيب الذرات فى الحامض النووى Acide Nucleique ، واقترحوا لذلك نموذجا لبنية جزيىء ADN . وكل هذه المراحل مهدت لمحاولة حل تعقيد الرمز التكوينى، خاصة مع هؤلاء الباحثين فى معهد « باستور » بفرنســا .

A. Lwogg - J. Monod - F. Jacob (جائــزة نوبل فى الطب 1965)، فقد بينوا كيف تستعمل الخلية الطبائع

---

13 — للمزيد من المعلومات — راجع
«Camnont est née la biologie moléculaire »
ص 111 من المرجع الذى سبق ذكره .

الوراثية المحمولة بواسطة الـ ADN ، ومن هنا غدا التطور كسياق بيولوجى بعض الخصائص الثابتة التى حاول من خلالها J.M. أن يحدد بنية التطور . ففى اطار هذه البنية الاخيرة تسعى البيولوجيا المجهرية لاحضار نظرية فيزيو — كيماوية Physico chimique عامة عن الوراثة . ((فجاك مونو)) يرتاى أن نظرية التطور التى تغزو البيولوجيا حاليا برمتها ستظل فقيرة ما لم تبلور نظرية عامة عن الجهاز الحى (14) . هذا الجهاز الذى يحمله الكائن الحى هو فى صميمه سلسلة طبائع وراثية تسيرها آلية مجهرية معقدة تتشكل وفق عملية تعاقب ((بروتينى)) تحتوى مكوناتها على بنية خاصة ذات أبعاد متداخلة فسياق تطور الكائن الحى يعود أساسا الى ثوابت كيميائية فى داخل العضوية . هذه الثوابت يمكن ملاحظتها وفق حالتين :

1 — الحالة المجهرية Microscopique

2 — الحالة العيانية Macroscopique

ففى الحالة الاولى يخضع الكائن الحى كظاهرة مجهرية لمستويات تقلب المادة المستخلصة من بنية الـ ADN ، فهى التى تحتوى على ما يفصح من مجموع العضوية . ففى تركيبها الفيزيو — كيماوى نجد مجموع التحولات الاساسية التى تشكل محتوى سيرورة التطور . وبارتباط مع هذه البنية يجد مفهوم الصدفة ارضيته ، فالصدفة حسب J.M. ستمثل مبدأ جوهريا تتمحور حوله كل تعقيدات المادة الحية : ((الصدفة باعتبارها حرية مطلقة وعمياء لهذا المعجز فى صرح التطور))(15) ففى اطار الوحدة الخلوية يمكن ايجاد هذا الثابت البيولوجى الذى نستشف منه جميع عناصر التعدد . ولم يكن ذلك ممكنا

---

14 — راجع المقدمة من كتاب J. M. الذى سبق ذكره

15 — J. M. م — س ص 148

سوى بفضل تقدم البيو ـ كيمياء Biochimie فى الربع الثانى من القرن العشرين ، حيث تم الكشف عن الوحدة الاساسية التى تحدد مجرى تطور الكائن الحى مجهريا ، حيث : « اننا نعرف اليوم أنه من البكتريا الى الانسان ، الالية الكيميائية هى نفسها سواء بالنسبة للبنية أو الوظيفة » (16) .

فمن حيث البنية : تحتوى كل الكائنات الحية وبدون استثناء على Macromolécules مركبة من بروتينات وحوامض نواتية Amino-acides ، وليس هذا فحسب بل أن الكائنات الحية تحمل فى عضويتها صيغة عددية محددة : عشرون حامضا أمينيا Amino-acides ترتبط بسلسلة تحددها خصائص بروتينية ، وهى صيغة تحتوى على عشرين رمزا . ثم أربعة للحوامض النواتية . وتسمى صيغة هذا المحتوى المجهرى Les macromolécules codées ويمكن أن نبسطها فى الترسيمة التالية :

بروتينات Protheines <—— عشرون Vingt amino-acides

الحوامض النواتية ARN أربعة Quatre type de nucléotides

<——

ARN-messager

أما من حيث الوظيفة فنجد نفس ردود الفعل تستعمل لدى

---

16 ـ نفس المصدر ص 136

17 ـ بينت التجارب أن بنية ADN هى التى تحدد مجموع التركيبات أو التأليفات التى تحدث بواسطة الخلية ، وفيها تنتظم Macromolécules codées على الشكل التالى : هناك وزن نووى مرتفع جدا بسبب تعقيد البنية Nucléotides المكررة كثيرا بحيث نجد سلسلة طويلة . N <—— N <—— N ... الخ وتركيبها هو ما يلى : Un acide phosphorique - une baze azotée - un sucre والسكر لا ADN هو Le désoxyribose ولا ARN هو أما الـ ARN فتتكون بدورها داخل الخلية وفقا للتصميم الذى تعطيه بنية ADN . فـ messager ARN هو نسخة ثانية من التنظيم الاساسى لـ

كل الاعضاء من أجل العمليات الكيمائية الاساسية (18) . ان تحديد هذه الثوابت الكيميائية التي تلعب فيها الصدفة دورا أساسيا اتجاه التحولات المتعلقة بمراحل التطور ، حيث الصدفة هنا على مستوى بنية الـ ADN هي العامل الفعال الذي يبرز ليست تحولا بسيطا ، بل هي مفهوم أساسي في البيولوجيا الحديثة ، اذ أنها « ليست فرضية ممكنة الادراك ، بل هي المعقول الوحيد الذي يتساوق مع وقائع الملاحظة والتجربة . وليس هناك من شيء يجعلنا (نأمل) أو نفترض مراجعة مفاهيمنا حول هذه النقطة . هذه الفكرة من بين كل المفاهيم العلمية التي نستطيع اتلاف كل وهم عن مركزية الانسان Antropocentrisme في العالم » (19) .

اما الحالة العيانية Macroscopique فهي التي تتمثل في تعدد وغنى العضوية مورفولوجيا وفيزيولوجيا ، أي النموذج البنياني الذي يؤسس خصائص الكائن الحي ويجعله يختلف عن الكائنات الاخرى عبر التوجيه الذاتي التلقائي أو ما يسميه J. Monod « بالتليونومية La téléonomie في مقابل ما يسميه بالتولد الثابت Invarience reproductive ، الذي يتعلق بالحالة المجهرية على مستوى بنية الـ ADN وتدخل الصدفة . وقبل تحديد معنى هذين المفهومين اللذان تتأسس عليهما نظرية J. Monod في اطار مفهوم التطور وآليات البيولوجيا المجهرية ، نشير الى أن عملية البحث المعرفي البيولوجي تهدف أساسا من خلال كشفها المتصاعد للعالم الكيميائي الخلوي بلورة ما ينطوي عليه الرمز التكويني Le code génétique ، حيث يقصد به المعنى الواسع الذي لا تندرج تحته فقط المفاهيم

18 — راجع ص 137 من
19 — ص 148 من

النسبية للبنية الكيماوية المتعلقة بالوراثة وطبائعها ، بل تلك الآليات المجهرية التي تفصح عنها ، وتحتوى عليها الاسس المورفوتكوينية Morphogenétique والفيزيولوجية ، وذلك قصد تاسيس نظرية الرمز التكويني La théorie du code génétique نواة وعمق البيولوجيا المجهرية .

يرتاى J. Monod أن هناك خاصيتين اساسيتين تحددان الكائنات الحية : (20) L'invarience reproductive

1 — التوالد الثابت L'invarience reproductive

2 — التوجيه الذاتى أو التلقائى « La téléonomie

اذ فى هذين الخاصيتين يتجلى ما يسميه : ((بالتناقض الابستمولوجى العميق))(21) . بيد أن الشىء الاساسى فى هذين العلاقتين بالنسبة للمنهج العلمى هو : مسلمة الموضوعية Le postulat de l'objectivité ، أى الرفض المباشر لكل الانساق المعرفية التى تحاول تاطير الظواهر والاسباب فى صيغ حدود نهائية . فالموضوعية كمفهوم عند J. Monod تناقض الايديولوجيا التى تعطى الاولوية لمبدأ ((التليونومى téléonomie)) أما ما هو مقبول بالنسبة لـ J. Monod من وجهة نظر العلم المعاصر ، فهو اسبقية الثباتية على التوجيه الذاتى . ففى الثبات نلتقى بالمصدر الاساسى الوحيد للتطور ، بكل ما يتضمنه ذلك من عوارض طارئة داخل البنية النسقية المتكاملة للكائن الحى . وهنا يدخل المفهوم الداروينى : الانتقاء الطبيعى ليدعم خاصية الثبات . فنحن امام بنية لا يمكن أن يتجلى سياقها التطورى فى عملية توجيهها الذاتى الا من خلال الاضطرابات التى تقودها ، وهذه وحدها : ((قادرة أكثر على (الاحتفاظ بالصدفة) ومن

---

20 — م — س — ص 34

21 — ص 38 من م — س

هنا تخضع الوقائع الى لعبة الانتقاء الطبيعى » (22) . وربما كان هذا المفهوم الداروينى الذى تحييه البيولوجيا المجهرية أحد الاسس التكوينية التى هى : « حتى وقتنا الحاضر ، تعتبر النظرية الانتقائية La théorie séléctive ، الوحيدة المقترحة ، التى جعلت من التليونومية خاصية ثانوية ، مشتقة من الثبات ، الذى يتساوق باوليته مع مسلمة الموضوعية » (23) . فمفهوم الصدفة سيغتنى بالانتقاء الطبيعى ، حيث ان فاعليته لا تكسب خصوصيتها الا من خلال هذا الفتاج (24) . فهو لا يعمل فى مجالات الزمات قاسية » وعن طريقها يحدد سياق التطور العام. ويدافع J. Monod بحرارة عن مفهوم الانتقاء الطبيعى لدى « داروين » ، ويرتأى أن تحريفا وقع على هذا المفهوم عندما أضفوا عليه معنى « الصراع من أجل الحياة »، هذا التعبير الذى ليس لداروين وانما لـ Spencer . فمعطيات البيولوجيا الحديثة هى التى ساهمت فى تدعيم المفهوم الداروينى ، عندما تمكنت من صبط وتحديد الجهاز المعقد للكائن الحى حتى بالنسبة للعضوية البسيطة . وقد لعبت « السيبرنطيق المجهرية Cybernetiqu microscopique الدور الاساسى فى اعطاء فكرة واضحة عن التبدلات التى تحدث فى البنية البروتينية ، فاصبحنا ندرك الاتجاه الذى يسير فيه « مشروع العضوية » . اذ : « التغيرات الوحيدة الممكنة هى تلك التى على الاقل ، لا تقلل من تلاحم الجهاز التليونومى ، بل التى تقوى اتجاهه نحو الاغتناء بامكانيات جديدة »(25). وان هذا الغنى والاتقان للجهاز التليونومى هو

---

22 — ص 42 من م — س
23 — ص 42 من نفس المرجع السابق .
24 — يمكن تقريب المعنى بهذه الترسيمة
25 — J. Monod المرجع السابق ص 156

الذى يبدو اليوم خارقا للبعض ، ومتناقضا للبعض الآخر . بيد أن صعوبات تمترض نظرية الانتقاء الطبيعى مصدرها ما فهمت ، وقدمت به كتحليل يعطى للشروط البيئية الخارجية دور الفاعل في الانتقاء . وهنا نكون امام مفهوم مغلوط ، اذ ان ضغوط الانتقاء التى تمارسها الشروط الخارجية على العضوية ليست في هذه الحال بمستقلة عن التجليات ((التليونومية)) لخصائص النوع . فالانتقاء يغدو اكثر فاكثر اهمية كلما كان مستوى التنظيم المستقل للعضوية أكثر علوا بالنسبة للوسط . ويمكن في هذه الحال اعتبار هذه النقطة أمرا حاسما عند الكائنات الحية العليا، حيث بقاءها وانتاجها مرتبطان اولا وقبل كل شىء بسلوكها . فهذا السلوك يحتوى على أهمية قصوى سيتطبع بها النوع الذى سينحدر من نفس السلالة . فما اوضحته بيانات التطور في مسارها هو عملية غزو مستمر للامكنة البيئية الجديدة من طرف هذه الكائنات التى حفل بها المحيط البيئى في تعاقب ازمانه الجيولوجية . فالفقريات ذوات الارجل الاربع Tétrapodes في تطورها المجيب وتعدد أنواعها (الضفدعيات Amphibiens الزواحف Reptiles ، الثدييات (Mammiféres) تعود في الاصل الى السمك البدائى الذى حاول ارتياد الارض ولم يتمكن من التنقل الا بقفزات عديمة المهارة ، ثم تمكن بعدئذ بعد ممارسة طويلة ، وكنتيجة لتحول في سلوكه ، خلق ضغوط وانتقاء ساعدت على انماء أعضاء قوية لدى ذوات رباعيات الارجل Tétrapodes : ((ففى هذه الحدود ينبغى تاطير مشكل ضغوط الانتقاء التى توجه تطور الانسان . ان مشكلة الانتقاء ذات هدف فريد ، مستقلة عن كل واقع يتعلق بنا)) (26).

فعملية الكشف المتصاعد للعالم الكيميائى الخلوى ، مكنت

---

26 — ص 166 مـن J. Monod

من اعطاء مفهوم التوالد الثابت صيغة بدا فيها أكثر حدة وتناقضا . بالتركيب الكيميائى العام الذى أصبح مقروءا فى رموزه وابجديته يدفعنا الى التساؤل عن هذا التعدد . لماذا تختلف الكائنات الحية فى تطورها مورفولوجيا وفيزيولوجيا ؟

السبب فى ذلك مباشرة راجع الى التركيب الكيميائى فى محتوى بنيته ، فهو من جهة Les nucléatides » ، ومن جهة أخرى Les acides nucleiques » ، والكل مترابط مع خصوصية البروتينات Les proteines ، يضاف الى هذه البنيه الثابتة نظرية التطور الانتقائى حيث مدلولها ومحتوياتها لا تنطبق الا على هذا الكشف : « فالنظام كله يحمل معه بحدة عناصره الوراثية ، فهو منغلق على ذاته ، غير قادر مطلقا على تقبل المعلومات كيف ما كانت من العالم الخارجى (. . .) انه يحمل علاقات ذات معنى موحد، تتحدى كل وصف « ديالكتيكى » اذ انها بعمق « ديكارتية » وليست « هيجلية » الخلية بحق هى آلة » (27) .

وأشير هنا فى البداية الى أن نزعة J.M. الوضعية العلمية لا تقتصر فحسب على اهتمامات الجانب العلمى فى اشكالية التطور ، بل تتجاوز ذلك لتطرح خلفياتها الايديولوجية والاخلاقية ، نلمس ذلك من العنوان الفرعى لكتابه « محاولة فى الفلسفة الطبيعية للبيولوجيا المعاصرة » ، حيث نجد مواجهة البيولوجيا للفلسفة ، ومحاولة تقويض أهم المفاهيم العامة فى تاريخ البيولوجيا : المذهب الحيوى Vitalisme ، والمذهب الاحيائى Animisme ، حيث المؤلف يربط هذا المذهب الاخير بالايديولوجية الماركسية ، معتبرا اياها حاملة لنزعة « انيمية » مضمرة . وهذا ما سبق أن ناقشناه فى الفصل الاول .

---

27 ـــ نفس المصدر السابق J.Monod ص 145

ان الثابت البيولوجي ADN اعتبر كشفا علميا رائدا استطاعت البيولوجيا المجهرية أن تحدد من خلال أبعاده ما هو وحدة فى آلية التطور ، حيث داخل هذه الوحدة تتجلى التغيرات الكيميائية التى تفصح عنها الطاقة الوراثية . فثمة ولاول مرة استطاع الانسان ضبط الخصائص الكيميائية التى تتحكم فى جزء مهم من سياق التطور ، حتى اذا ما سايرنا الآفاق الواسعة لعقلانية العلم والبيولوجيا على الخصوص ، فى حدود نسبية تطورية بدورها ، لالفينا أن ما هو معجز فى طبيعة التحول تم التوصل الى تحديده بعيداً عن كل مفهوم نمائى . الا أن الطموح العلمى للنظرية المجهرية جعتها تسقط فى حتمية آلية تفسر بها كل الظواهر الحية ، بما فيها الانسان . صحيح أن فى سياق التطور آلية بيولوجية الا أن هذه الآلية على مستوى الكائن الارقى : الانسان ، تأخذ منحى مغايرا فى اشكالية التطور ، بل هو منحى حاسم فى بلورة تجليات تشترك فيها فاعلية الانسان . ان نقل الحتمية من ميدان المادة الجامدة من قبل علماء فيزيائيين (28) اصطدموا بغرابة الكائن الحى الى مجال المادة الحية أعاق الابحاث التجريبية التى تستند فى تحليلها الى أسس مادية — — جدلية . وهذه الاعاقة ليست دليلا قاطعا ضد فهم المادة وانتقالها من الكيميائى الى ما هو حى حسب تعبير لينين . فمقولة المادة — الجدل فى عالم الكائن الحى يمكن اعتبارها ضرورة Une nécéssité لانتظام طبيعة تخرج عن كونها آلية وحتمية صرفة ، والا سنسقط فى ما سقطت فيه البيولوجيا المجهرية : الانسان مقولة بيولوجية . أضف الى هذا سببية التفسير والتحليل بالعامل الواحد ، الذى يدفع الى استخلاص نتائج تؤطر سياق

---

28 — لقد انتقل بعض علماء الفيزياء الى البيولوجيا ، ونقلوا معهم بعض المفاهيم كالحتمية مثلا ، وطبعوا ذلك بمثالية فلسفية وعلمية مازالت بعض العلوم تتخبط فيها حتى اليوم .

التطور فى حتمية مغلقة تستبعد كل عناصر الواقع الخارجى عن العضوية . فـ J. Monod مثلا عندما يرى سياقا تطوريا يخضع لنسقية ديكارتية آلية ، أكثر منها هيجلية جدلية ، ويصرح بان الخلية هى آلة ، لا يرى أو بالاحرى لا يريد أن يرى عملية التفاعل التى توجد داخل الخلية ذاتها . فاذا ما استحضرنا الخلية على مستوى بنية لـ AND نفسها ، واستحضرنا فى نفس الوقت تنظيم الحامض النووى Acide nucleique من خلال تعقيدات Les nucloétides ، لوجدنا ان تركيبها هو نتيجة لعملية تفاعل بين عناصر رئيسية ثلاثة Un acide phosphorique Le Sucre - Une base azotée . وهذا يمكن اعتباره طرفا أول فى عملية التفاعل ، اما طرفها الثانى فهو البروتينات فى تركيبها كحوامض أمينية Acides aminés . فثمة طرفي تفاعل les nucleatides من جهة والبروتينات من جهة أخرى حسب التركيب الكيميائى لكل واحد منهما . فاذا ما برز هذا التفاعل امكننا ان نقول باننا أمام مقولة جدلية تتفاعل فيها الاسباب والمسببات وفق ضرورة انتظامية ذاتية ، وليس حتمية آلية عمياء ، دون ان نكون قد استبعدنا مفهوم الصدفة كاحتمال علمى يمكن ضبطه . والكائن الحى ليس هذه البنية الفيزيولوجية فى تعدد تركيبها الفيزيو ــ كيماوى ، بل ثمة ايضا عوامل البيئة الخارجية التى تؤثر بدورها تاثيرا ملموسا فى سير التطور . فعملية التركيب الكيميائى حاصلة على مستوى الجينات وبنيتها ، فى تفاعلها حتى يمكن أن يحصل ما يسمى فى المصطلح البيولوجى: « بارتقاء المنظومات أو التناسقات الوراثية » (29) . الا ان هذا التناسق فى النظام الوراثى يظل قاصرا اذا ما اقصى عملية التفاعل بين المورث ومحيطه البيئى . فهناك ارنب « هملايا »

29 ــ « الانسان والارتقاء » جون لويس ــ ترجمه عن الروسية عدنان جاموس دار الجماهير 1970 ــ دمشق ــ ص 17

الذى منحته مورثاته لونا ابيض فى اماكن محددة ، واثناء درجة حرارة عادية ، حتى اذا ما نقصت درجة هذه الحرارة تغير بياض لونه الى سواد . فالقدرة التى تعطى خصوصية التكيف مع البيئة تنتج من تاثر مباشر بهذا العامل الخارجى ، ولو اننا فى الاخير نقول بامكانية توريث الصفات المكتسبة . الا ان ما يمكن ان تدلى به مع التحفظ هو أن بنية الـ AND كخاصية مورثة لا تعمل على مستوى العضوية بصورة وحيدة ومطلقة ، بل يمكن الاشارة الى دورها النسبى كخاصية تفاعل متبادل مع البيئة المحيطة ، اذ يمكن أن تتدخل عملية الانتقاء الطبيعى فى المورث نفسه لتعدل من مساره التطورى ، او تعطية قفزة أو طفرة تثبت فيه كخاصية جديدة ملازمة . ان الاجهزة العضوية فى تشابكها تحددها عوامل تكوين بنياتها الداخلية ومدى تفاعلها الذاتى المتبادل مع الوسط البيئى المستقل عنها موضوعيا . ويبقى الامر غير حاسم وفاصل فى اعطاء طبيعة نهائية لاحدهما على الآخر ، اذ أن استمرار التطور هو دوما تحقيق لتعقيدات البناء البيولوجى .

3 ــ الانسان و التطور .

ان الحدث التطورى الرائع حقا ، هو ظهور الانسان على سطح هذا المحيط الحيوى ، وهو ظهور مازال يحمل حداثه اذا ما قيس بالازمان الجيولوجية الغابرة فى متاهات الملايين من السنين التى أنتجت بقية أنواع الكائنات الاخرى فى التطور العام. ففى العصر الجيولوجى الرابع L'ère quaternaire انبثق عن المادة فى تطورها عضوية جديدة . وساهم من بين العوامل فى تطوير هذا الكائن الجديد عدم تخصصه ، لان التخصص يحد من مجال التطور ، وهذا ما ابرزه لنا علم الاحاثة بالنسبة لبعض الحيوانات أو الانواع التى انقرضت ، حيث

انها تخصصت فى وظائفها العضوية ، الامر الذى نتج عنه استحالة تكيفها بعد التغيرات التى حدثت فى قشـــرة الارض ، والمحيـــط الحيوى . فالانسان غير متخصص عضويا بشكل يحد من تكيفـــه مع الموقف الجديد ، اذ يملك دماغا متطورا ، ووسائل عمليـــة مرنة يستطيع التكيف بحسبها فى جميع الموقف والحالات . فمع هذا الكائن النوعى انبثقت ولاول مرة فى تاريخ الكـــائنات الحية مواجهة مع البيئة استطاع ان يتكيف من خلالها ابتداءا من صناعة للادوات البدائية حتى وصوله الحالى الى ارتياد الفضاء والمجرات البعيدة . فكـــان ذلـــك قفزة فـــى مسيـــرة التطـــور ، الذى لم يعد تغيرات بنيوية على مستوى عضويته ، وعضوية الكائنات الادنى فى سلم التدرج البيولوجى ، بل اسس تطورا تبلور فى خاصية تفرد بها نوعه فى جهازه العصبى المركزى الذى اكسبه تطورا انتقائيا من مرحلة محض بيولوجية ، الى مرحلة حقـــق فيهـــا قطيعة تطورية مع كائنـــات حية كـــان يعيش معهـــا فى ((الظلام الدامس)) فظاهرة الانسان غدت اكثر تعقيـــدا على مستوى النوع فى تطوره ، خاصة بعد تداخل معطيات جديـــدة ازاء الخاصية البيولوجية ، التى اندمج فيها البعد الاساسى لهذا الكائن : تطوره التاريخى ، الاجتماعى ـ الاقتصادى ، ثم تاسيسه لقيم وحضارة . وهنا نطل على نظرة الماركسية من وجهة نظر انجلز فى مفهوم هذا التطور .

ان العمل هو الذى أعطى الوجود الانسانى امتدادا تطوريا. وعبر سلسلة التطور الممتدة من سلالات القرود الشبيهة بالانسان من حيث خصائص بعض التركيب ، استطاع الانسان المنحـــدر من هذا الاصل عن طريق اكتسابه لمهارات يدويـــة ان يبـــرز متجاوزا القردة الغير المتطورة ، وذلك لاكتسابه درجـــة مـــن التطور العضوى لازمت ممارسته البيئية التى وصل فيها الـــى درجة عليا من التكيف .

واول صيغ هذا التحول تبلورت فى تحرر السيد وأستخداما للادوات فى ممارسة العمل ، وهنا كانت السيطرة الاولى على الطبيعة ((فالعضو خلقته الضرورة والحاجة)) ومن هنا تبين للناس خطا أن افعالهم هى وليدة افكارهم ، فى حين انها وليدة الحاجة التى انعكست على تفكيرهم ، وهذا الخطا بالذات هو الذى حمل معه الانسان فيه مجموعة من التصورات المثالية العالم ، وحمل معه ايضا رصيدا من الاخطاء التى : ((ماتزال تتحكم بهم ، الى حد ان اشد علماء المدرسة الداروينية الطبيعيين مادية ، ما زالوا عاجزين عن تكوين اية فكرة وضحة عن اصل الانسان ، لانهم تحت هذا التاثير الايديولوجى لا يدركون الدور الذى لعبه العمل فى تلك المسالة))(30) واضيف الى هذا الاساس المادى الملموس ، عامل اللغة الذى تطلب بدوره تطورا فى المراكز المخية خاصة منها المركز المنحى للكلام وانتهى هذا التطور الذى لم ينفتق فى النباتية الى ايجاد تمايش يضم فى تركيبه تطور هذا الانسان ، فكان المجتمع ، باعتباره وحدة تجمع بشرى . فهناك تفرد للكائن الانسانى بالرغم من اصله التطورى المشترك مع بعض الكائنات الحية الاخرى . فالتطور الحيوانى ظل يسبح فى وتيرة الية مغلقة واندمج فيها النوع اندماجا نهائيا مع الوسط حتى اذا ما كانت تغيرات طارئة لم يستطع التكيف معها ، وكانت النتيجة لسلالته او نوعه الدحار نحو الفناء . فى حين ان الانسان بنوعه اندمج بالتاريخ متكيفا مع جميع انواع التقلبات التى صاحبتها البيئة ، وحيث تاريخه هو ايضا فترات تغير وتطور ساهم مساهمة اساسية فى صنعها وتوجيهها . فاذا ما اخذنا

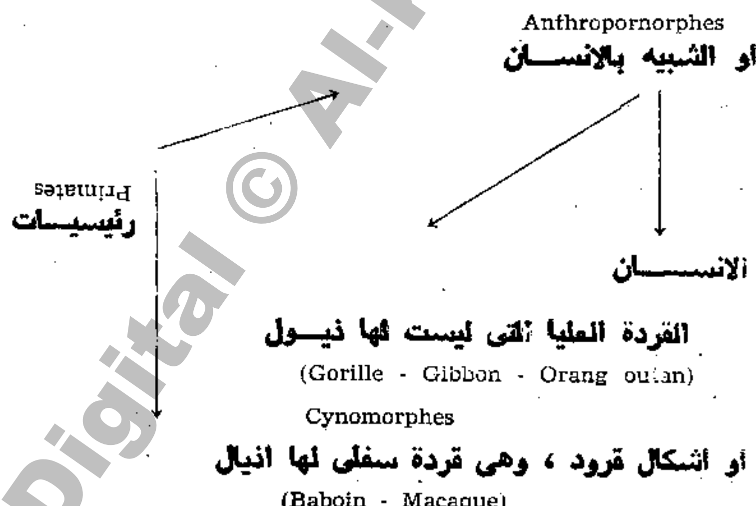
---

30 — راجع انجلز ، جدليات الطبيعة ، ترجمه من الاصل الانجليزى محمد اسامة القوتلى — منشورات دار الفن الحديث العالمى — دمشق 1970 ص 247 .

التطور كمبدأ ارتقائى ، فكيف يمكننا أن نقول بانطباق هذا على الانسان ؟

ان دراسة الثدييات المتحجرة تكشف أنها مثلت الحلقة الواصلة بين القردة والانسان . ثم تعاقبت فى الزمان والتطور أشكال لكائنات بشرية أولية : ففى أصل الانسان الاول ، وقبل وضوح مورفولوجية الانسان العاقل Homo Spiens الحديث ، ظهرت أنواع شبيهة بالانسان ، عرف أولها تاريخيا باسم Les australopithèques وقد عاشت هذه الكائنات فى افريقيا الجنوبية منذ تاريخ سحيق يقدر بمليونين من السنين ، ويرتأى بعض العلماء أن هذا النوع الشبيه بالانسان (فى مشية معتدلة — فى عظام حوضه وعجزه ثم فى بنية اسنانه) ربما كان حلقة فى تطور متصل لنوع سبقه فى سلسلة التطور المفقودة. الا أن أقدم المكتشفات التى تمت بالقرابة الى انساننا الحديث هو النوع المسمى Pithécanthropes أو « Pithécanthropus erectus » الانسان — القرد ، الذى اكتشفوا أول بقايا عظامه فى آسيا وبالضبط فى « جاوا Java » لن لهذا النوع بعض جوانب الشبه مع الانسان « البكينى » الذى يعرف بالاسم العلمى التالى : Sénanthrope وكان مخه اكثر تطورا من القردة ، حيث بلغ حجمه حوالى 1000 سم3 ، وكان يمشى مستقيما كالانسان ، وهو أول من استعمل الادوات والنار . ولعل تطور المخ وحجمه بالنسبة للانسان هو الذى اكسبه بعدا جديدا فى استعمال الادوات . فاذا ما قارنا بين هذا الحجم عند الانسان الاول ، والقردة من جهة ، ثم الانسان الحالى لالفينا أن تطور الجهاز العصبى المركزى والعضو الرئيس فيه : الدماغ، هو الذى ساهم فى دفع سياق التطور الانسانى ، بعد أن أضيف اليه بعد اللغة . فجمجم مخ الانسان البدائى الاول بلغ حوالى 1000 سم3 كما أسلفنا بينما حجم مخ القردة العليا مع

« الغوريلا Gorille أو غيرها ، لايعادل سوى 650 سم3 وهذين الحجمين معا لا يساويان الا مقدارا ضئيلا بالنسبة لحجم مخ الانسان الحديث 1500 سم3 . ويكون الانسان Les hommes de Neanderthal النياندرتالى اقرب الى الانسان المعاصر بالرغم من وجود بعض الخصائص البدائية فى تجلياته المورفولوجية والميزيولوجية . ويبدو ان هؤلاء ليسوا وحدهم أسلافنا المباشرين ، اذ سبقتهم رئيسيات قبل انسانية Des primates préhumains (31) تعتبر حتى اليوم حلقة مفقودة فى سياق التطور العام . ويأتى الانسان من حيث التصنيف ينتمى الى هذه الرئيسيات Primates ويمكننا ن نوضح درجته حسب الترسيمة التالية: :



---

31 ـــ رتبة من الثدييات منها ما هو بشرى ، وما هو قردى .

وعلى هذا يكون جنس الانسان اشكالا متعددة انقــرض معظمها ، ولم يبق منها الا ما كشفته البقايا . ومن هنا تاتــى الصعوبة الكبيرة فى اعطاء تحديد ثابت وقار للشجــرة التكوينية حسب تطورها لدى الانسان . فهذا التتابع المتتــالــى للانسان القديم داخل هذه الرئيسيات : australapithèques Néauderthaliens Pithécanthrope ليس دليلا كافيا للقول بان هناك انحدار مباشر من هذه الاشكال بعضها البعض الا ان التطور انطبق على الانسان كمبدأ عام ارتمائى ، صاحبه دوما تغيرات وصلت الى مرحلة تطورية فانتجت تغيرات نوعيــة لم تبق فى حدود معطيات البيولوجيا وتفاعلاتها الفيزيو ــ كيماوية، و حدود « مغامرة البروتوبلازما لا حسب تعبير الاستاذ J. Rostand وهنا نكون مضطرين الى القول بأن تطور الانسان لا يمكن تاطيره فى مقولات بيولوجية صرفة ، لان تطوره لم يقتصر على حدود الاضافة والاغناء للمادة التي انبثقت منها عضويته ، بل هو ايضا خاصية كيفية تندمج بالتاريخ وتضمه ،وتفهم ضرورة نظام الطبيعة لتغييرها ومحاولة التحكم فيها . وهنا يمكن القول بان التطور الذى اضافته الماركسية الى البعد الانسانى يحمل اضافة غنيــة لمفهــوم التطــور سواء فــى بعــده المــادى ــ التاريخــى او المــادى الجــدلــى . فلقــد ارتــاى مــاركــس ان « الاصــال بالنسبة للانســان هو الانســان نفسه » باعتبــاره ممارسة Prascis ، فاعلية تملك القوة المادية من اجــل التغيير . ولم يسقط فى عمليات التصنيف المقولى فى بعدها الواحد، اذ أن كثيرا من النظريات البيولوجية سقطت فى هذا المفهوم : الانسان مقولة بيولوجية . او حتى اذا لم تسقط فى هذا التصنيف اعطت حتمية آلية تدمج فيها تطورا مغلقا يبرز خــاصية الكــم اكثر مما يبرز خاصية الكيف . فالمعطيات البيولوجيــة بالنسبــة للانسان هى فى ان يوجد او لا يوجد، ومتى كان وجوده جاز لنا

الحديث اكثر عن تطور يرتقي بحاضره نحو التقدم والارتقاء ، نحو التغيير من اجل المستقبل ، ولو اننا هنا لا نستبعد خلفيته البيولوجية ، وانما نستبعد ان تكون هذه الخلفية ثابتا مطلقا لا يدخل في جدل مع بقية العوامل الاخرى المساهمة بدورها في تطور الانسان . ومن هنا يجوز أن نقول بان الاغناء الذي ساهمت به الماركسية في مفهوم التطور هو اغناء مادي تاريخي ومادي جدلي، يعتبر تطور الانسان تشكيلة لعوامل متداخلة ليست البيولوجيا كمقولة فيها سوى ذرة لا تحصر التعقيد الممتد لسياق التطـــور العام ، وانما تغنيه ، خاصة بعد ان يتحكم الانسان علميا فـــي جهازه البيولوجي ، وطبيعته المادية من حيث هي معطى موضوعي فالوتيرة البطيئة التي كان يسير عنيها التطور بدأت تتقلص عندما اعطت هذا الكائن النوعي التجديد في نموها وتطورها ، اي غدا الزمن التطوري الذي انتج كائنات حية متعددة في ملايين السنين بما فيها الانسان ، لا يشكل سوى فترات زمنية لا تساوي من حيث القيمة ما يساويه تطوره الحقيقي ، تطور غزو المادة ابتداء من نظرية الارتقاء ، والنظرية الخلوية في تركيبها الفيزيو كيماوي والنظريات الميكروبيولوجية في الامراض ، وكشف الآليات البيولوجية التي تتحكم في العضوية ... الخ مما حدا بالبعض الى القـــول أننا نعيش حقا عصرا بيولوجيا ، هذا العصر الذي بلور تطور الانسان في مستوى لم يصله اي عصر من العصور البيولوجية والجيولوجية لتطور الكائنات الحية . فاذا ما امكننا قبول توقف التطور الحيواني ، فاننا في نفس اللحظة يمكن ان نفتح مملكة رحبة لتطور الانسان في سيرورة التطور العام . فهل يا ترى رسمت البيولوجيا حدودا للتطور ؟

ان هناك طموحا انسانيا للهيمنة على سيـــاق التطـــور وتوجيهه ، بعد أن اصبح التحكم في التحولات التطورية امـــرا مسلما به . فما بعد الانسان او صنع الرجل العبقري بـــدات

امكانات البيولوجيا تتلمسه لا بالصيغة ((النيتشاوية)) الرجل السوبرمان ، بل بالصيغة العلمية ، حيث أن الامر عند بعض العلماء البيولوجيين لا يتجاوز عملية ((تكثير الخلايا الدماغية)). وفعلا فان اشكالية التطور على الصعيد الانساني عندما يتساءل J. Monod عن الحدود الحالية للمعرفة البيولوجية يجد في حديها اشكاليتين اساسيتين لم يستطع التطور البيولوجي حتى الآن ـ انقاص حدتهما : اصل الكائنات الحية من جهة ثم الوظيفة التليونومية للجهاز العصبي المركزي من جهة أخرى الا أن كل هذه الاشكاليات في مفهوم التطور وسياقه تظل : ((اتجاها وصعودا نحو التنظيم ، سباق وراء توعى الالكترون والجزيء والمادة الحية ، والدماغ ، والانسان ، سباق يتتابع مع التاريخ نحو مستقبل يجب ان نريده .))(32)

خلاصة عامة

ان فهم وحدة التطور لا يمكن ادراك طبيعتها :لا ككل . وهذا الكل تفاعلت في اطاره وعبر ملايين السنين تطورات خضعت لها المادة نفسها ، سواء على مستوى التغيرات التي لحقت بالكائن الحي ، أو بالكائن الجامد . فالانسان وما يتضمنه نمط تركيبه الفيزيو ـ كيماوي ، وآليات عضويته خضع لسلسلة تغيرات شاملة التعقيد والتشابك مع محيطه ، بحيث ان ما حملته عضويته البيولوجية من تجارب افصحت عنها قوانين الحياة ، يبدو وفق عملية متداخلة يستحيل بناء حاجز او قطيعة فيها . هذه العملية تبدأ من خصائص تركيبه الوراثي ، وتستمر عبر القفزات أو الطفرات الكيفية التي تنتقل فيها المادة الى حالة مغايرة لوضعها السابق ، ملتحمة بالعضوية في شروطها

32 ــ « آفاق الفكر المعاصر » ص 810 .

البيئية . فاذا ما استحضرنا مفهوم التطور ، فان دلالته تنسحب على كل الخصائص والصفات ، بدءا من بنية الـ A.D.N. كجزيء الى الخلية ، الى مجموع الانسجة ، الى العضو ، ثم مختلف الاجهزة التى تتحكم فى بنية الانسان ، حيث الجهاز العصبى المركزى فيها هو النتاج الاعلى لكل هذا التركيب . ففهم التطور من وجهة نظر بيولوجية صرفة يحد من الظاهرة التطورية . ولهذا كانت المادية الجدلية أقرب الى العلم فى تاكيدها على وحدة وشمول ما هو تطورى . فليس هناك ما تدعيه بعض النظريات الانتروبولوجية التى جعلت قطيمة نهائية بين ما هو حيوانى وما هو انسانى فيما اسمته : « بنظرية النقطة الفاصلة » .

ان المادية الجدلية تقدم نواة لنظرية بيولوجية يفهم من خلالها التطور كسياق مادى مرتبط بتطور طبيمة الكيمياتى والانسانى على السواء . وهذا التطور المشترك بين الكائنات الحية والجامدة ، حتى ولو لم يملأ العلم حتى الآن كل ثغراته ، فما زال العلم البيولوجى يضيف بما يكتشف من حفريات غنى يعطى الدليل القاطع على سلسلة هذا التطور الفعلى التدريجى .

ثبت المراجع

— آفاق الفكر المعاصرات — مترجم — جماعة من الاساتذة الجامعيين (غاتيان بيكون) — منشورات عويدات — بيروت — 1965

— النظرية المادية فى المعرفة : سلسلة مصادر الاشتراكية العلمية رقم (10) « روجيه جارودى » ترجمة ابراهيم قريط — دار دمشق للطباعة والنشر دمشق — بدون تاريخ .

— جدليات الطبيعة : ترجمة محمد أسامة القوتلي — منشورات دار الفن الحديث العالمي « فريدريك انجلز » دمشق 1970

— مراسلات ماركس — انجلز : ترجمة جورج طرابيشي — دار الطليعة — بيروت 1973

— لينين : الدفاتر الفلسفية : ترجمة الياس مرقص — دار الحقيقة — بيروت 1971

— جون لويس : الانسان والارتقاء : ترجمه من الروسية عدنان جاموس دار الجماهير — دمشق — 1970

مجلات

— تراث الانسانية — المجلد الثاني — عدد 12 — ديسمبر 1964

— Sciences Sociales N° 3 - 1974 - Academie des Sciences de l'U.R.S.S.

المراجع الفرنسية

— Jacques Monod : Le hasard et la nécessité essais sur la philosophie naturelle de la biologie moderne - coll.points - Ed. du Seuil 1970.

— Pierre Thuillier : jeux et enjeux de la Science essais d'épistémologie critique Coll-Science nouvelle - Ed. Robert Laffont Paris 1972.

— E. Wolff : Le chemin de la vie - Paris - Hermann 1963.

— لويس دوبرويل والميكانيك التموجي : ترجمة محمد وائل الاتاسي — منشورات وزارة الثقافة والارشاد القومي — دمشق 1974

— الموسوعة الفلسفية المختصرة — مترجمة من الانجليزية — مكتبة الانجلو المصرية 1965

G. Gourev « Darwinisme et religion » La lutte idéologique en biologie. Ed. en langues étrangères Mosco 1960.

محمد محمد الاشعرى

وأشياؤه المتحركـــة

الفاضل عبد الرحمان

يعتبر شعر محمد محمد الاشعرى صوتا جديدا ضمن تركيبة الاصوات التى تمثل الاتجاه الجديد فى شعرنا المعاصر ، هـــذه الاصوات التى اختارت طريقا تختلف كما وكيفا عن الاصـــوات المبحوحة التى سبقتها والتى كان مصيرها الذوبان والاحتضار، لانها حكمت على نفسها بذلك لا اراديا ، أو بمعنى آخر كبلت حيويتها واستمراريتها بقيود تقليدية ، أما حفاظا على مصالح خاصة مجردة ، أو ان طاقاتها تجمدت ولم تعد قابلة للانصهار والتقولب مع الاوضاع والظرف التى تتغير باستمرار .

واذا قلت بان شعر الاشعرى يدخل ضمن هـــذا الاتجاه الجديد فذلك راجع لمؤهلات جعلته اهلا لذلك ، وهذه المؤهلات هي التى دفعتنا الى القيام بهذا العمل ، وتسليط الاضواء على خصائصها وقيمنها المضمونية والشكلية ، واذا كانت هـــذه التجربة الشعرية قصيرة من ناحية عمرها الكتابى ، والتى يمكن حصرها فى حدود السبعينات ، فما هى الانتاج لمعـــايشـــات ، تغلغلت فى الاعماق ، بل قل تعتقت ان جاز هذا التعبير، لمـــدة طويلة وعلى الخصوص ابتداء من النصف الاول من هذا القرن،

حيث كانت الساحة العربية بصورة واضحه مسرحا لعدة هزات اجتماعية ، واضطرابات سياسية ، وارتباكات نفسية، وقد انطبع هذا بجلاء على انتاجات مثقفى هذا الجيل ، لما تحمل من سمات مأساوية ، وملامح انتكاسية ، تعبر عن هموم الانسان العربى ، ومشاغله فى هذه الظروف العصيبه ، حيث يبحث عن هويته وسط صراع وجودى مرير . وتجربة الاشعرى تدخل ضمن هذا البحث الصعب ، ولكى نلم بجوانب هذا الفعل علينا ان نرجع الى القضايا التى طرحتها قصائده .

القضيــة ــ الموقــف :

ان واقعنا واقع موبوء ، مريض ، نتن ، وانساننا انسان مفجوع، مرتبك، مستلب او قل مفقودا هذه قضية واقعية لايختلف فيها اثنان ، وهذه القضية التى ولدت فى انساننا هذا المفقود هموما ، هموم البحث عن الخلاص والولادة ، البحث عن ينابيع البعث والاتزان . وهذا ما تعبر عنه قصيدة « مقاطع دامعــة على صدر الوطن » التى هى عبارة عن تساؤلات يطرحها انساننا المفقود كناية عن جهله بكل ما يقع على مسرح الحياة داخل الوطن ــ هذا الوطن الذى تصوره البعض حبيبة ، والبعض الاخر أما يلتمس منها الدفء والحنان ، أو أبا يتقمص رجولته وفحولته . كناية على استلابه ومحدودية آفاقه :

« فاخاطب احد الناس : ماذا يحدث ؟ »

« أيــن أنــا ؟ »

« واقول لنفسى كيف أسير وكل الطرق مطوقة، ؟»

« هل أنزل فى وسط الشارع حيث تموج الارصفة بوحل النسيان ؟ »

« هل انزل فى وســط القريــة ؟ »

واذا كانت هذه الاسئلة تعبر عن جهل ، فهى أصــدق

تعبير عن حالة وجودية عصبية ومتوترة ، تشخص الضعف و « الانفرار » فى خضم الاستلاب والقهر ، و تمثل الضياع الذى لم يبق للفرد منه الا طلب الانعتاق والنجدة من الوطن/ الام كالطفل :

« أدركنى ياوطنى »

لكن من هو ؟ وكيف هو ؟ هذا الذى يستغاث به ؟ هل هو قادر على هذه المهمة ؟ طبعا سوف لن يكون هناك رد فعل ، وبهذا تكتمل المأساة المزدوجة ، ويصير طلب الخلاص مطلبا عسيرا وعبثيا يكرر نفسه فى شكل حلزونى بين الفرد والاخر ، لان الكل احترق ، والكل ضعيف ، نتن ، مزيف ، أعمى مفجوع، مخذول . فالمرأة تلد الجوع، والعرى ، والجهل وتصدرهم بدون رسوم ، والارض اشتعلت وضاع محصول السنة ، ورجال القبيلة، شاخوا وبشيخوختهم هتكت حرمة الوطن .

وصدر ابناء القرية فى علب دكناء
الى بلدان الثلج واحضان السفاكين

لهذا يستغيث / أستغيث

وابحث عنك كما يبحث الطفل عن أمه

فياوطنى اشكوك اليك وتحملنى الاشواق على اجنحة من نار . عيناى تفيضان دما

وما دامت ألام ضعيفة، ولا تستطيع أن تمنحه فحولة ورجولة، يلتجىء فى الاخير الى الوطن / الاب ، ويسائله فى اسى :

وان كنت أبـا حقا فلماذا تهرب منا ؟
ولماذا لا تمسح ادمعنا ؟
وتصد سيوف الجلادين ؟

وتتضخم المأساة وتزداد قتامتها وضوحا عندما يخيب أمل هذا الابـــن الضائـــع :

هـــذه المدينة التى تأكل من لحمها
وتفرش الديدان للابناء الضائعين

هذه المدينة التى تنكرت لبنيها الذين نفوا ، عذبوا ، أعدموا ، لا لشيء الا لاجل الحصول ولو على لحظة وصال قصيرة يتـــم خلالها اضطجاع صوفى ، او على جرعة دفء وحنان من ثديها، ولاجـــل هـــذا .

« صفعنـــى الذى ينام فى سريرها
« غـــرسنـــى فى الملـــح
« تقيحت أصابعى ، تقطعت حبالى الصوتية
« حينما ترفض المدينة التى أعشقها شرعيتى (2)

فهذه هى قمة الفاجعة ، وقاع المأساه بالنسبة لبحـــــر العشق المحذور ، وهذا كاف بأن يجعل ذلك العاشق / المجنون يلعق نكبته ، ويلوك خيبته ، ويهضم صمته الذى شبع منه حتى التخمة . اذن ما العمل ؟ يترك تدميه لريح الوهم لكى يحملـــه الى عالم شكيز وفرينى ، وكأن شيئا لم يحدث قط ، تناســـى ذلك الغول الذى يهيمن بوحشيته على المدينة وافتض بكارتها ، وأخمد جسدها الفائر ، وامتص دمها الوعى ...

ولكن فى حادث اصطدام عنيف مع رجل غاب منذ مدة ، قد يكون نفى ، او اعتقل . أو اعدم ، جمله ينتفض ، وينفض عنه غبار الوهم ، واشباح الرعب ، ويفتح عينيه على الحقيقة/ الواقع ، فتأخذه رغبة جامحة فى الرجوع الى الوراء مـــن اجل تصفية حساباته . وتطهير ارشيف الذاكرة/التاريخ . لكـــن تصدمه «الاشياء بطعم عبثى » ويجد نفسه فى حالة وجوديـــة

ممزقة أمام شبق الموت والميلاد ، بين الوجود والعدم ، بل أمام الموت وحده الذى لا مندوحة له عنه ، لان الموت دائما يحمل فى ثناياه بذرة الحياة ، لان الحياة هى تفسخ وتجدد ، رفض وتحرك ، لذا كان اختياره اختيارا يتيما : الموت ، من أجل التكفير عن خطيئته ، نعم الموت / الميلاد على خريطة الوطن ، « وطن الشمس » وهذه هى الصورة الوحيدة التى يجب أن تفهم وتوعى .

وينزل بنا الاخ الاشعرى الى الشارع ، الى القرية ، الى المعمل ، ويقدم لنا فى صورة مكبرة أشياء تتحرك ، تتفاعل ، تتحدث داخل هذه الامكنة .

فمن احدى المحاكم ينقل الينا « محاولة فهم لما جرى فى محاكمة علنية » واذا كانت هذه القصيدة ترمى الى فهم هذه المحاكمة ، فهى تفيدنا بأن هناك تهمة ومتهما ، أو بمعنى أوسع وأوضح ، هناك قضية .

انها قضية انسان كادح ، مستغل (بفتح الغين) يمكن أن تلتقى به فى اى مكان شئت من هذا الوطن ، قضية سيزيف جديد يحمل اثقال العالم فى عينيه ، فالموت يرتقبه ، والهموم تطارده ، تطارده نظرة ابنه الملتاعة ، وزمجرة الالة التى تستعبده ، وتستنفذ طاقاته ، وتسلب هويته البشرية .

انها قضية انسان ضائع يعيش ذاكرته ، يعى وضعيته السوداء / الدامية على ضوء ماضيه الذى يختزن فى ارشيفه عددا هائلا من ذكريات الاستغلال والاستعباد والتجهيز حيث كان يصدر بدون رسوم الى مدن الثلج والصقيع وناطحات السحاب ، هذه المدن / الاسواق التى تغيرت تبعا لتغيير أساليب العصر ، وتوسعت وفق توسع المطامع ، وضخامة السطو فـ :

اصبحت جميلـــة (3)

وارتفقت بمعمل التعليـــب

حتى مزارع القطن القديمة تغيرت

واصبحت معامل على مشارف الجليد

تحولت هنا الى مناجم الفوسفاط

انها اشارة ذكية الى ألتوسع الامبريالى على حســـاب الدول المتخلفة ، انه توسع واشباع المركز على حساب المحيط، مستعملا فى ذلك جل الوسائل ممكنة الوجود ، الايديولوجيـــة منها والاقتصادية ، والاجتماعيـــة ، والعسكريـــة ... الخ .

وتفتح الجلســة ويبدأ الاستنطاق :

ــ اسمـــك

ــ عامـــل

ــ التهمة تخريب الانتاج الوطنـــى

ــ التهمـــة تمزيق الانسان الوطنى

ــ كـــم دخلـــك ؟

ــ عشـــر اطفـــال

ــ هل تعرف معنى نقص الحجم الانتاجى

ــ اعـــرف هول الحجم الاستغلالى

وترفع الجلسة ويصدر الحكم ، فتنزع منه الرئتان رمـــز الحياة ، ويفصل عنه الساعد والمعول رمزا العمل والعيش ، علاوة على هذا يدخل اليمعمل تقويم الانسان حيث يهياعقله حسب الطلب ، انه الموت بل ابشع صور للموت لكن من الصرخـــة الاخيرة للموت ، دائما تنبت السواعد المبتورة ، وتحيا من دمها المسفوك الف نخلة ونخلة ، وتسنبل عروق الرفض والاحتجاج..

* * *

وينزل الى الشارع ... وتكون المطاردة :

قـــف

هل أنـــت مواطن ؟

اصمـــد معنا . (4)

هذا هو رد الفعل ضد عروق الرفض التـــى سنبلـــت ، والسواعد المبتورة التى نبتت من جديد فى تحد انتحارى ، وذلك من اجل قمع الذاكرة / الوعى والزج بها داخل زنزانة الصمت والنسيان . فكان التحدى ، وكان الصراع الوجودى الـــذى يحتل القمة من جبل التضحية .

وقال العاشق لا أصبـــر عنك

وهل يصبر من اصبح فيك الغائب الموجود .

يا موالا من ذاكرة الشعب تردد ءالحانات

« لـــو لم اكـــن أبغيك ... ما سألت عنك »

انه صراع العشق الصوفى للابحار الشرعى ضد عواصف الطاردة ، وزوابع القتل ، ويكون القتل فيعانق الدم المغـــدور جيد التراب ، ويتم الوصال والتلقيح فتكون الولادة الشرعيـــة وهذا يفيد أنه كلما ازداد هذا العشق رسوخا وصلابة ، ازداد ايمان العاشق توهجا واشراقا بالوطن ، ويتحول هذا الـــدم الى جواز مرور أو تأشيرة عبور الى جسم الوطن ، الـــى رغبة مازوشية ، تريد الانتقام من الماضى المزيف ، اللاواعى ، أو ترغب فى سحق هذه الذات وتعذيبها قصد تحقيق انتقـــام للماضى الضائـــع ، اذن :

خذ رشفة من دمـــى

مـــن دمـــه

مـــرة فى السنـــة

ويستيقظون كل يوم على أكتاف المشنقـــة

هل نسيت بانا نشكل جســـم الوطن ؟ (5)

بل يتحول الى هوية متوهجة عبر امتداد الزمن ، وجواز مرور الى عالم (لوركا) حيث تمتزج الكلمة بالفعل ، والـــدم بالطين ، والموت بالميلاد . يتحول ألى التزام واعى وهـــادف أو حضور منظر وفاعل . وهنا استسمح لكى اعزم على بعـــض الاسئلة ، والتى ستكون زادا لنا أثناء جولتنا هذه مع أشعار الاشعرى : هل فى هذه الظروف العصيبة التى نجتازها قد تـــم هذا الحضور بالنسبة لمثقفينا ؟ واذاً تم كيف ؟ واذا كان الـــى جانب قضايانا فهل هو كاف ؟ وهل سيستمر ؟ (اسئلة مطروحة) وما دام موضوعنا هو مواقف الاخ الاشعرى من هذه القضية ، نرجع الى انتاجه ونحاول استشفاف الاجوبة . أجد بـــان الاخ الاشعرى قد استن له طريقا ملائما لمبادئه فى الحياة ، وقـــد افصح عن هذاً فى عدة مواقف . ولا ادل على ذلك اكـــثر من قصائده الثلاثـــة :

«قراءة جديدة فى كتاب الاغانى » و « رسائل أبى ذر الغفارى » و « الطائـــر الازرق » .

ففى الاولى يقدم لنا نموذجا من أولئك الذين يتطفلون على الكتابة ـــ وما اكثرهم ـــ ويقحمون أنفسهم حيث يخيبون ، نزل باحدى القرى وحاول أن يقوم بعملية « استجواب » على شاكلة الاستجوابات ألاذاعات ، ويجب أن نؤكد على كلمة نزل لمـــا تحمله من معنى ، ويسال أحد الفلاحين عن محصول السنـــة، لكن يصدم ـــ لانه دخيل ـــ وينتكس عندما يلمح اللعنة تتطاير شظايا من عينى الفلاح ، والخوف ويحترق فى افرانها / الذاكرة

فيتحول الى رماد يذروه الغضب فى عيون من ترقد فى قلبه افعى ضارية أو يستبد به وحش الغابـة :

محصول العـام ضرائب
محصول العام اراض وهبت من اجل قصيدة
محصول العام قارب انس ينساب على ماء النهر (6) .

فيرتد، ويركب فرسه الذى يحدوه الشوق الى القصر ، وبهذا تزداد هويته وضوحا ، وفى نفس الوقت تتسع حدقات الناس المخدوعين . واخيرا يحط الرحال ببغداد ، مدينة الانس والطرب ، المجون ، « والكرم » حيث يوزع أمين المال بالقسط على الشعراء ، واسحاق يغنى ويعربد ، والخليفة نشـوان تطفحه سكرات الجنس والخمر و :

تكتب عن ليلة انس ما مـرت قط
وان الناس يعيشون على شاطىء دجلـة
وحصيلـة ذاك العـام الف قصيدة

. . . .

وتكون خرجت من الوطن ومزقت من الذاكرة
حوار الشيخ ضجيج المارة ... وحديث الناس
واكـون عرفت الشىء من الضـد
فهمت حديثك عن زمنـك

وبهـذا يكـون قد ارتكب حماقة فى حق التاريخ ، وقد اشرت الى مرتكبى هذه الحماقة فى بداية حديثى عن اولئـك الذين حكموا على انفسهم بالذوبان والاحتضار .

وعندما يكون الاخ الاشعرى قد عرف الشىء من الضد ، فهذا يعني بان هناك صراعا قائما بين قوتين متمايزتين ، بـين

أنها حركات نفسية وفيزيولوجية تتسم بالحدة والعنف ، همها الوحيد هو تنحية العوارض من طريقها الى الـوجود . بجانب هذه الحركات الواعية ، نجد حركات عشواء ، تتسم بالحيرة والارتباك ، لازالت لا تعرف اتجاه الاختيار أو المسؤولية ، لازالت رهينة التساؤلات داخل جدران الاغتراب والشك ، لازالت تبحث ، وتبحث عن كيف تبحث وتصل :

« وابحث عنك كما يبحث الطفل عن أمه
« ايـن انـا ؟
« هـل انزل فى وسط الشارع حيث تموج الارصفة بوحل النسيان ؟
« هل انزل بين الاكواخ الواسعة الصدر ، الدامعة العين كثكلى ؟
« هـل انزل فى وسـط القرية ؟ (10)

ورغم اختلاف هذه التحركات ، فالخاتمة — بالنسبة لكل قصيده فقط ، لانني أعتقد فى أن قصائد الاشعرى هـى « قصيدة واحدة » متكاملة مادامت تخضع لحركة صيرورية ، وتسير فى مسار واحد رغم تشعبه وتفرعه — دائما تأتـى رافضة وهذا جانب تقدمى فى شعر الاشعرى لان الرفض هـو تعبير عن تفاؤل ، وحل للاشكال الطارىء ، لان الرفض اختيار، والاختيار مسؤولية ، والمسؤولية حريـة ، والحرية وعـى ، والوعى شىء تقدمى لا يقبل الثبات بتاتا ، واقصد بالوعى وعى الذات بذاتها وبالموضوعات الخارجية ، لذا اتت جميع اشعاره ذاتية تعبيرا ذاتيا عن تفاعلات الذات مع الواقع ، مع «الاخر» وفى هذا المضمار يقول الاخ الاشعرى : « فى اعتقادى هنـاك وجهان لهذه الذاتية ، وجه موضوعى يعتمد على الانطلاق من الجزء للكل ، والتعامل مع الذات كجزء فى الواقع » اى تتأثـر

طبقتين متناحرتين ، واحدة مقهورة تعيش على الهامش ، والاخرى قاهرة ومستبدة ، وتظهر تقنية الاخ الاشعرى هنا عندما قسم قصيدته الى مقطعين ، وفق التقسيم الطبقى حيث صور لنا بلباقة تحركات ذلك الطفيلى وتنقلاته التدريجيه ، وتصرفاته من برجه العاجى ، وتحيزه الانتمائى .

واذا كان الاخ الاشعرى قد عرف الاشياء من أضدادها فقد يصير باستطاعتنا معرفة انتمائه الطبقى من خلال هذا الضد — النموذج — الذى عرضه وعارضه . ومن هذا يصير بالامكان ايجاد الاجوبة الكافية لتلك الاسئلة التى طرحناها فى البدء : أقصد حضوره الانتمائى وكيف تم ، لقد اتضح لنا هذا من خلال انتمائه الفكرى والطبقى ، وفضحه للعبة ، وكشفه عن الخدعة . واعتقد بان هذا كاف فى الشهادة على صدق تجربته واختياره ، لان اتخاذ مثل هذه المواقف فى ظروف صعبة تكون من الصعوبة بمكان ، وهذا واضح من خلال قوله :

لكن من يكتب هذى الايام ولا تتمرج الشوكة فى يده ؟

يعلق فى وسط القرية مفصول الرأس ، جريح الصدر ؟

اما استمراريته فى نفس النهج أهى ممكنه ام لا؟ قضية تقتضى منى أن أحتفظ برايى لان هذا ملك للمستقبل الاتى ، لكن هذا لا يمنع من أن أشير الى ان بارقة من الاستمرارية والصدق تشع من انتاجاته ومواقفه ، ولا أدل على ذلك من هذه المراحل التى قطعها خلال تجاربه فى هذا الميدان ، او بمعنى آخر ، أنه اتخذ هذه المواقف عن اقتناع واختيار صرف .

واذا كانت قصيدة «قراءة جديدة فى كتاب الاغانى» تعتبر تحولا جديدا فى التجربة الكتابية لدى الاخ الاشعرى ، فيمكن اعتبار قصيدة « رسائل أبى ذر الغفارى » تكميلا لهذا المشروع وتطويرا له . والذى يتسم بالقدرة على توصيل الافكار الهادفة

الى الجماهير عبر تعبير جرىء يعتمد مرة على الرمز (لوركا — الفقيه بولحية — أو ذر) ومرة على الحوار وتارة أخرى على السرد القصصى .

و « رسائل ابى ذر الغفارى » عبارة عن ثلاث رسائل تمثل ثلاثة مواقف ، امام أوضاع متباينة ففى الاستهلال يقدم لنا الاشعرى أبا ذر الغفارى ، هذا الانسان المستقى من تراثنا الحضارى القديم ، أيام كانت الدولة الاسلاميه تبحث عن استقرارها الاخير وسط الصراعات والتقلبات السياسية والاجتماعية، قلت يقدم لنا هويته ضمن حوار صريح : انسان لا ينزع الى ابحث عن مناصب ، كيفما كانت نوعيتها أو درجاتها ، لا يحب الملكية كيفما كان نوعها ، وليس لها انتماء سياسى ، يلبس ارذل الاثواب ، محكوم عليه بالنفى ، ليس صديقا للخلفاء ، لانه مجاز فى الفقر ، ولهذا لا يوجد اسمه من « بين كبار العصر » .

هوية نموذجية تتحرك اذ فسر الاخ الاشعرى حركاتها ضمن ثلاثة رسائل . ففى الاولى الموجهة الى عثمان « الخليفة» يجيبه فيها على اقتراحه الذى يتضمن مغريات شتى قصد تجميد طاقاته ، ولجم لسانه عن قول الحقيقة ، واجهاض مبدئه فى الحياة ، يجيبه « لا حاجة لى فى دنياكم » ، وهو لم يسكت عن هذا الحد بل اثار نشايا أخرى كان يخشاها عثمان « الخليفة » .

من قتل عمر ؟
هل حققت بمقتله ؟
ولماذا اخذ من النهر الماء ليسكب فى جوف البحر ؟
ولماذا تأكل تبنا

وحولك تؤكـل أجسام الناس ؟
السجـن ... النفـى ... المـوت
وجدع الانف ... وقطع اليد والرجل وبقر البطن (7)

افعال لها اكثر من دلالة) واحدة صفها أو فسرها بما شئت من قاموس الفاجعة ، لكن مراميها واحدة : الاحتجـاج ... وتساؤلات تعبر عن هموم مغترب يحترق شوقـا فى ديمومـة القهر والعقم . فهو لا يريد أن يعيش من سرقة قوت الاخرين ، ولا الترقية فى المناصب على حساب الضعفاء والمستضعفين.. بل همه الوحيد ـ وبعد اقتناع وقناعة ـ هو امتلاك الكلمة ـ النار ، والعبارة / التغيير ليس الا . لكن هل هذه القناعة وهذا الاقتناع صادر عن اختيار حر ومسؤول ؟ أم هما فى نظر الاخ الاشعرى كافيان بان يكونا اداة للتغيير دون أن يعطى ادنى اهمية للدنيا ، للواقع ؟ هل هذا فى حد ذاته تهرب صوفى ، او اعتزال تنسكى ؟ وهل هذا الهرب كاف لنجاة سفينتنا المشتعلة .

« أن أملك كلمـة
« خير مـن أملـك دنيـاكم

وتتشابك المواقف مع القضايا فى الرسالة / الموقـف الثانية ، فيقذف هذه الصرخة :

« حذار من السخط اذا اشتعل بأعين فقراء الوطن
« فمـا يطفىء هذى النار غير دماء الاعداء

منذرا أبا هريرة الذى خان الامانـة التاريخية ، وزيـف وداس الحقائق رواس الكرامة الانسانية مقابل اشياء سرابية ، وكان شيئا لم يحدث أو يستحق الذكر ، اللهم ان كانت هناك بعض الاخبار عن مصاصى الدمـاء ، أو الليالـى الشهريارية ، والرغبات البكثيرية ، والغايات العمياء ، والتصرفات النيرونية ،

او اسكات جوع الناس الفكرى بروايات ميتافيزيقية مثالية ، بعيدة كل البعد عن الواقع . اما ما يجرى ببطن الام / الوطن من آلام واوجاع ، فالحديث عنه محرم .

ولهذا جاءت الرسالة الثالثة الموجهة الى « كل النـــاس » عاصفة اكسيجين تنفث نسمة الحياة فى من فقد الامل ، وتذكى جذوة البعث فى من اطفئت توهجاته :

مـــن يستطيع منكم ان يحول الحزن
الذى يأكل جمــرا يلقيـــه فى وجه الاسياد ؟
من يستطيـــع منكم ان يفهم الفقر الذى يقتات منه ؟

وان كانت هذه التساؤلات تعبر عن صراع فردى وســـط بلد وزيرات القمع والقتل ، ووسط موتى يحاول ايقـــاظهم ، فسوف تجد لها صدى عند هؤلاء الذين انهكوا انفسهم بالتعازى والمواساة ، بالرغبات المكبوتة ، والغصص الحبيسـة ، وثمـــة سيخرجون ، سيبعثون ... والبقية معروفة .

* * *

2 ــ القضيـــة ــ الابـــداع :

بعد عرض هذه القضايا ــ المواقف ، تتبادر الى الذهـــن عدة اسئلة ، وعلى راسها مسالة الابداع ، هل انتاج الاشعرى هذا يعتبر ابداعا ، او بمعنى آخر : ماذا اعطتنا قصائد الاشعرى من جديـــد فى نطاق الابداع الشعرى ؟

ان القصيدة المعاصرة تكوين هارمونى ، يتداخل فيـــه المضمون بالشكل ، وتتفاعل الابعاد الفكرية والوجدانية مـــع وسائل التوصيل والتواصل ، تتكامل فيه التجربة والمعاناة مـــع التعبير ، يلتحم فيه القول بالفعل ، وكل قارىء لقصائد الاشعرى

قد يخرج فى الاخير بملاحظة هامة وهى ان أسلوبه اللغوى ليس الا وليد اللحظة التى تمخض عنها ، خال من الرتوش والتزويقات اللفظية ، فهو أثناء كتابته لا يلجأ الى نقش تعابيره وعــرض عضلاته اللغوية ، بل تاتي منسابة ، سهلة فى تراكيبها ، عميقة فى تعبيراتها ، وغنية من حيث تصويراتها ، معفية من الشطحات والقفزات السوريالية ، وهذا ان دل على شىء فانما يدل على تمكن الاخ الاشمرى من فهم وظيفة اللغة ، الكلمــة و مــدى فعاليتها فى المجتمع ، كما تدل على صدق تجربته ، وانتمــائه ، وقد تجلى هذا بوضوح تام فى قصائده الاخيرة مثل « ســيروت التل ... بيروت الولادة » و « مقاطع متوهجة من سيرة الفقيــه بولحيــة » و « الطائر الازرق » التى اخترت منها هذا المقطع:

« قال الطائــر ... شيئا فشيئا كان التابوت يكبر
« وكــان الوطــن يمــوت
« وكان شعر الاميرة يتساقط
« ثــم انتصب السيد فى بهــو القصر
« مستعرضا ذكورته أمام الحريــم
« وبأصبعه الدبب أدخل سيناء بغليونــه
« طلب عــود ثقــاب
« واستصدر من مجلسه امرا بمنع التجول
« نتــجــول أيــــن ؟
« حتى ألنهــر فى مرقــده
« والنــخل تاكــل
« والاهــرام انبطحــت (8)

انه شعر متفجر ، سهل، عنيف، كل كلمة فيه تعبر امــا

عن مواقف أو احساس ، او تصور ، لذا لا يمكن أن نحذف كلمة دون ان يتغير معنى السطر الشعرى ، أو نستغنى عن السطر دون ان يصاب ألتركيب الهارمونى للقصيدة أو المقطع منها بخلل فى المعنى ، او المسار التركيبى ، لان كل كلمة او جملة هــى ضربة فرشاة على لوحة تشكيلية ، وبتلك الاشكال والالوان تتكون اللوحة ، وبدونها تفقد معناها ، بل تكون قاصرة عــن تبليغ المعنى المطلوب او المضمون المرغوب فيه . والسر فى ذلك هو ان قصائده تخضع ـــ أو قل يخضعها لحركة ضمنية متشابكة لولبية ، نظراً لاستعماله الانفعال بكثرة ـــ وبهذا تصبح القصيدة اداة فاعلة ـــ وهذا ما يزيد قصائده احكاما وحيوية وفعالية ، تنفعل بانفعاله ، وتتفاعل بتفاعله مع الواقع .

والحركة حسب مفهومها عند الاشعرى هى صراع فعلى بين قوتين متنازعتين : قوة اجهاضية ، وسالبه ، واخـــرى مريضة ومتمردة ، وقد تعرضنا لهذا فى القضية ـــ الموقف ، لكن مرادنا الان هو تبيان بصورة شكلية تحركات القصائد ، أو بمعنى آخر حركات شخصيات القصائد المتنازعة ،،، فهى تفتــــرق وتلتقى وبلقائها هذا ينشأ صراع حول الوجود ، أو نـــزوع ـــ الى البقاء ، كثيرا ما يتسم هذا الصراع بالحـــدة والقـــوة ، بالسخط والعنف ، وهذا ما نلاحظه على تحركات ذلك المتهـــم فى المحاكمة العلنية ، الذى دافع عن حقه فى الوجود وســـط تفاحش الاستغلال الانسانى ، والاستلاب الفكرى ، او علـــى تحركات الباعث عن المعادن ، هذا الدى وقف على الامـــــر الواقع ، واكتشف بانه كان مغفلا ولا زال مستغلا ، لذا نجـــده يقـــول :

« فيجرفنـــى الرفض
« فأهـــوى بالفأس على شىء اكرهه
« وانا أعتزم الحفر الى أن اجد كرامة (9)

وتؤثر « ووجه مرضى يجعل الذات بديلا للواقــع و يسحــق المفهوم الجماعى فى خضم الانــا »

فعندما يقوم الاخ الاشعرى بعملية الاسقاط ، اى اسقاط الكل على الذات ، فتذوب الاحساسات الذاتية الفردية فى بوثقه الذات الكليـــة ، الجماعية ، مادامت الذات جزء من الكل ، والكـــل مركب من ذوات ، اى ان افعال وحركات الكل ما هى الا افعال صادرة عن هذه الذوات المكونة للكل ، وهذا ليس معناه اذابة الذات على حساب الكل ، بل على العكس ، هذا يعطى للذات قيمة مادامت ذاتا فاعلة تتحرك بتحرك الجماعة ، تؤثر وتتأثر ، سواء كانت هذه الافعال سالبة او موجبـــة :

اغفــر لى ان لــم اعــرف كل الغزوات

فان الشعب ضعيــف الذاكرة (11)

او : ادركنى ياوطنى

أبحث عنك وقد قيل بانك تحنو وتحب صغارك

لكنــا نطــرد من دروبـــك .

والذى زاد ابداعاته اغناء وثروة ، وقضاياه تحليـــلا وتوضيحا هو توظيفه للتراث قصد استيعاب الواقع / الحاضر ضمن الفهم العلمى لحركة التاريخ « كما يقول هو نفسه » ، حتى وان كان تعامله مع التراث قليلا فى قصائده ، وما القصد مــن توظيف الاحداث أو الاشخاص التاريخية والتى اصبحت ملكــا للزمن الماضى ما هى الا وسيلة لتوضيح القضايا الراهنــة ، وهذا لا يعنى أن هناك تشابها كبيرا بين سمات وظروف ما هو ملك للماضى وما هو رهن الحاضر ، بل يعنى ان هنـــاك تشابها قريبا فيما يخص الحركة التطورية — واعنى بالحركـــة التطورية الصراعات الاقتصادية ، والاجتماعية ، والسياسية — التى يسير وفقها كـــلا المجتمعين .

واسقاط الاحداث والشخصيات التاريخية على أخرى معاصرة — فى حدود انفمالية — يعنى فى مرماه البعيد المطالبة بالتغيير والاحتجاج على التكرار المتعفن ، ومن هذا أتت جدوى التراث — التراث المتحرك المتقدم — وجماليته التصويرية ، وكلما استعمل هذا التراث بدقة جاء الابداع غاية من الاهمية والجدة ، واذا كانت قصيدة « رسائل ابى ذر الغفارى » أو قراءه جديدة فى كتاب الاغانى » تعتبر وجها مشرقا ووليدا شرعيا واصيلا لشعرنا المعاصر ، فلانها اشتملت على هذه السمات .

3 — الاخراج :

والذى أضفى على قصائده طابع الشاعرية المرهفة والاحساس العميق ، هو تصويره الدقيق الرائع للاغوار النفسيه وما يتعامل بداخلها ، وهو بهذا يجعل القارىء يشعر معه بتعاطف متين ، ومعبرا أمينا وصادقا عن همومه ومشاغله. فعندما تقرأ قصيدة ما من قصائده ألا وتشعر معه بانك تخوض غمار هذه المواقف او هذه المشاهد ، او تحضر عرضا مأساويا على خشبة الواقع ، كأنك لحظتها تمشى فى الشارع ، أو تزور سجنا او تحضر محاكمة . تشعر وكانك تشارك اشخاص القصائد فى حركاتهم الصراعية ، لان صوره الشعرية صور فاعلة متحركة ، وليست صورا التقطتها عدسة الكاميرا أو اصباغا الصقها فرشاة فنان على القماش . او وصفا تقريريا يتسم بالجفاف والمباشرة ، ان صوره الشعرية كائنات حية ، تتكلم ، تسمع ، تتأثر ، تنفعل ، تتغير ، تغير وتتقدم انها كائنات واعية لكنها مأزومة . فتذوق معى أخى القارىء هذا النداء اليائس ، وهذا التصوير المأساوى ، وهو يخاطب الحرية

« ياصخرة نحملها الى الجبل

« ولا تصـــل (12)

أو تذوق هذه اللوحة التعبيرية التى خرجت من اطارها التقريرى ونفضت عنها جمودية الاصباغ واخذت تتحرك وتعبر من خـــلال الحوار . وكلما تقدم هذا الحوار ، ينقشع الضباب ، ويتـــأزم الموقف ، وتتضخم المأساة ، مأساة الطائر الازرق ومعشوقته، ولكى يزداد القارىء تفهما للوحاته ، وضع حاشية متضمنة هوية الطائـــر الازرق الذى هو « من المسؤولين الاساسيين فـــى الانتفاضة الطلابية المشاغبة بالقاهرة ««، ومن مدبرى عمليـــات (التحرير المشبوهة فى الارض المحتلة) ومن المورطين فـــى الاضرابات العمالية بمناجم الفوسفاط ... ولا يستبعد أن يكون احد الذين دبروا عملية طرد الحضارة الامريكية من الفيتنام..»

• من مر من هنا يتذكر امراة ... كانت تمشى الهوينا

• عاريـــة النهدين

» محلولـــة الشعـــر

» تسال عـــن طـــائـــر أزرق

» تسال عنه حتى الحارس السكران

» ــ سيدى : لم يخرج لابسا سوى ريشه اللامع ونعله المثقـــوب

» ــ هل يحمـــل علامة مميزة

» ــ صـــوتـــه نقـــط

» حينمـــا يغنـــى تضطرب المســـافـــات

» ترتعـــش الاغصـــان

» تمتلىء الازقـــة بالفـــرح

» واحيـــانـــا

» تــرعبــه الاحــذيــة الثقيلــة
» فينــزوى هنــاك فى آخــر
» يضع راســه تحــت جنــاحــه الايســر
» ويبكــى
» او يصمــت
» او يخلق العالم اجثت من مفاصل الاطفال
ــ سيدتــى عندمــا داهمتــه الاحذيــة
اتذكــر ... آه عندمــا داهمته
لم يكــن متــرددا ...
احمــر منقاره حتى كــاد كاقحوانه طريــة
وصفق بجنــاحيه
ثم تقــدم كفــاتح مقــدام
ومن دهشتــى ... لم اعــرف مــا حــدث

* * *

هذه هى بصورة اجمالية ، الخطوط العريضة ، والمميزات الخاصة ، والمؤهلات القيمة ، فى قصائد الاخ الشاعر محمد محمد الاشمرى ، هذا الشاعر الواعد ، واستسمحه عن كون هذه الدراسة قاصرة عن التعرض لجميع ما يختص به شعره نظرا لضيق المجال ، ولصعوبة الحصول على جل قصائده التى نشرت ، واتمنى ان اعود اليها مرة اخرى لدراستها من زاوية اخرى ، واتمنى فى نفس الوقت الا يبخل علينا بعطاآته وتجديداته.

الفاضل عبد الرحمان

هوامش :

1 ـ مقاطع دامعة على صدر الوطن ـ العلم الثقافى 1 / 3 / 74
2 ـ الموت والميلاد على خريطة الوطن ـ المحرر الثقافى 16 / 2 / 75
3 ـ محاولة فهم لما جرى فى محاكمة علنية ـ المحرر الثقافى 29 / 6 / 75
4 مطاردة من بحر العشق ـ المحرر الثقافى 7 / 9 / 75
5 ـ اشكالية الجرح والوطن ـ المحرر الثقافى 17 / 8 / 75
6 ـ قراءة جديدة فى كتاب الاغانى ـ العلم الثقافى 20 / 12 / 74
7 ـ رسائل ابى ذر الغفارى ـ العلم الثقافى 8 / 11 / 74
8 ـ الطائر الازرق ـ المحرر الثقافى 13 / 6 / 76
9 ـ يوميات باحث من المعادن ـ العلم الثقافى 27 / 7 / 73
10 ـ مقاطع دامعة على صدر الوطن ـ العلم الثقافى 1 / 3 / 74
11 ـ مقاطع متوهجة من سيرة الفقيه بولحية ـ المحرر الثقافى 16 / 3 / 75
12 ـ حفريات على جدار الحرية ـ العلم الثقافى ـ 6 / 11 / 74

نقـــد

المليانى ادريس، والحكمة القاسية

نقد الثرثرة أم إدانة الصمت.

خلال مصطفى

تـقـديـم

لمـــاذا الشعر . هل له من دور فى حركة التاريخ . وهل صحيح أنه الآن أكثر من أى وقت مضى اداة ـــ كالعدم ـــ من أدوات التنقيب عن الحقيقة ، وهل هو فعلا قتـــال للمعرفـــة الانسانية . اذا كان التشكيل ـــ والرسم ـــ لغة مغلقة وصامتة لا تبغى الافصاح ، وتريد أكثر ما تريد الاستدعاء الى التامل الفاعل ، والتساؤل المؤثر ، فان الشعر ، على العكس من ذلك، لغة مفتوحة جدا، ومضجة فى الوقت نفسه، الى درجة انهاستدرج من تتعامل معه، الى الحركة القائمة والفاعلة، بحيث يمكن ان تكون فى احسن أحوالها نظرية لممارسة اخرى ، غير منظمة . هذه النظرة بالطبع تناوىء النظرة التى ماتزال طاغية نسبيـــا على الفهم ،

(*) « فى مدار الشمس رغم النفى » . شعر المليانى ادريس الطبعة الاولى ـــ اكتوبر 1974 . مطبعة النهضة . فاس .

والتى ترى ان التشكيل والشعر معا ، والاشكال التعبيرية الباقية، ليست غير وسيلة للتمتع ، ليست غير ترف . انها النظرة المصاحبة لوجهة استهلاكية استغلالية . فالشعر ترجمة — احساس ، فضلا عن انه قنطرة بدائية — تنبؤ بالمجهول الذى ظهرت له ارهاصات تشغل الواقع وعناصره ، رهاصات تبدو وكانها افرازات ستظهر حتما . افرازات ((يسترئيها)) الشعر الصادق عبر ضبابيات قد تكون احيانا ، غير واضحة حتى بالنسبة للشاعر ،، وذلك بفعل تناقضات الواقع المعقدة من جانب ، وقوة وحدة وصدق الاحساس لدى الشاعر من جانب آخر . والشعر بعد هذا وذاك ، عناق حار جدا ، وتداخل مشتعل بحركة الصراع فى المجتمع الطبقى . كما انه قد يكون استكشافا وتنويها خالقا لحماس اكثر بالنسبة للمجتمع الذى تفرغ كلية لمواجهة كوارث الطبيعة ، بعد ان انهى مسيرته . فالشعر اذن فاعل فى وجود الانسان ، كيفما كانت طبيعة هذا الوجود . وقد يصلح هنا ذكر أمثلة على ذلك . فالكثيرون يعرفون مثلا مدى الاثر الذى تركه فى فترة زمنية محددة من مسيرة شعب التشيلى ، شعر الانسان الكبير ، الشاعر بابلو نيرودا . واى وقع كان يفعله هذا فى وسط الطبقات التحتية وهى تتغنى بقصائد شاعرها ، وقت خوضها الصراع بالذات . وعندنا نحن فى العالم العربى يذكر الجميع بلا ريب ، ابان الهزيمة التى لحقت بالانظمة العربية فى سنة 1967 ، الاشكال النضالية التى بادرت تخوضها الجماهير العريضة على طول المجتمع العربى ، ومن يذكر هذا ، لابد انه يذكر ان جماهيرا معينة كانت ترفع شعارات فى صورة ابيات واحيانا فى صورة قصائد ، من شعر لمناضلين فلسطينيين ، مثل شعر محمود درويش ، وشعر سميح القاسم ، وشعر آخرين. الى جانب دور هذا الشعر فى العملية المسرحية ، والعمل على

مساعدتها للتاثير فى وعى الجماهير من اجل تعميقه او ترسيخه . من هذا ، يتبين أن الشعر ، كما يقول بذلك العديد ، ليس مطلقا فى نظرى ، مجرد شهادة ، وشهادة فقط . انه شهادة فعلا ، وأكثر من ذلك ايضا .

ومن جهة ثانية ، ((لا يمكن الهروب من سبيلين لاخضاع الواقع ، الاول شعرى بوصفه وظيفة للاستجابة الانسانية ، والثانى علمى بوصفه شيئا مستقلا يصنف الاستجابة الانسانية)) هكـذا يقـول (مـات ولتـون) فى حديثـه عن العلاقة بين الشعر والعلم . وهو عالم ، وليس شاعرا . امـا الفيزيـائى المعروف لوى دى بروجيله ، فيؤكد ما يلى ، وهو يتكلـم عـن الشاعر بول فاليرى : ((ليس من شك فى أن مميزات الخيـال وحدة الحساسية الشعرية عند بول فاليرى تتكامل بشكل رائع مع تفانيه فى حب الافكار العامة ، وميله المستمر الى الضبط فى الصور والكلمات ، او الى روح الدقة التى تصل الى حـد الرهافة . وبهذا يلفى فى تطور العلم كل ما يتمالى وعقله : من جلاء فى التصورات والالفاظ ، والكشف المفاجىء عن ابعاد غنية من الانتاج الفكرى ، والدقة الكاملة للمقولات التى تكشف هفوات المنطق ، والخواص الغير مرتقبة للاشكال والاعداد ، ونسبية الزمان والمكان ، وغموض عالم الذرة . وكل هذا ، يشق للفكر البشرى آفاقا غريبة . لقد عرف بول فاليرى ، لانه شاعر بصيرته نافذة كيف يتصور ما وراء جموديـة الحقـائق التجريبية ، وبرودة اللوغريتمات والنظريات ، من غزو ساحق للمجهول ، وسير صاعد صوب عظمة الحق التى تجسد القيمة ، كما تجسد شعر العلم .)) ومن يقرا ادونيس ، قراءة المتبصر ، لا المتذوق فقط ، ينبهر امام ما يتكشف له من حقائق ملمـوسـة

نسطرها أبيات شعرية كثرما تكون قصيرة النفس ، لكنها عميقة الكشف . وليس أدونيس غير مثـال .

عبر هذا التقديم لا ندعى اننا قدمنا الجواب عن الاسئلة التى ارغمنا على طرحها فى البداية قصد تشكيل مدخل ملائـم لحوار نقدى مع المليانى ـ الشاعر . بل نعتبر ما سطرناه عملية تبريرية علميه لضرورة الاهتمام بالقصيدة، وذلك انطلاقا من اقتناع ثابت، ألا وهو عظمة وغنى المسيرة الشعرية لدى الانسان منذ أن كان، وما تمثله وتصوره هذه المسيرة الشعرية من قيمانسانية نبيلة حقا . هناك بالطبع الشعر ـ السقوط . وهو مسؤول وحده عن أبتعادنـا عنـه .

المليـانـى ، و الحكمـة القـاسيـة :

من هو الشاعر ؟ وما هى هـوايته . هل يهتـم بجمـع ((طوابع البريد ، وأوراق النقود ، وصور الممثين والممثلات)) هل ينساق مع اهتمامات الذين ترسخت فيهم سلبيات الواقـع الآخر ، الواقع ـ الفراغ ، الذى يريد أن يوهم ان كل شىء على ما يرام ، وان الناس فى هذا السطح ((الهادىء)) ، لا هم لهم سوى أن يبحثوا عن وسائل ملء الوقت ، ((حتى لا يسأموا الهناء والهدوء)) ؟ كل هذا ، كان عملية التفرغ للفراغ أضحـت هـى الشغل الشاغل للاحياء . هكذا يدفع المليانى قصيدته ((هوايتى)) لمحاكمة المعاش ، وان كانت الابيات التى تتكلم عن هؤلاء الفارغين المتفرغين ، تحمل معها نفحة الاستهزاء بهم والاحتقـار لهـم . احتقار يحاكمهم قبل أن يدينهم حينما يطرح بديلـه ، هوايته . والقصيدة هذه عمودية ـ افقية فى آن واحد . فهى انطلاق مـن التحت ، حيث تسائل المعنيين بالامر ، تسائل الذين تصب عليهم قساوة الطغاة ، والذين يقابلون هذه القساوة بهوايات تفريغيـة

استلابية. هذا هو الوجه الاول للهواة هؤلاء. الوجه الثاني يتجسد فى تقديم الشاعر هويته قبل هوايته . آنه يحدد نفسه طبقيا ، ويخلص لهذا التحديد ، اخلاصا شجاعا . فاذا كان الفارغـــون المتفرغون من طبقته ، فهو لا يتردد فى محاكمتهم وتحقيرهم . واذا كانوا من غير طبقته ، ينفصل عنهم شجاعا ، ينفصل وهو يصنف من يعادى منهم ، اولئك الذين يحفظ اسماءهم ، لهدف فى نفسه ، يتكشفه القارئ الواعى وهو يشرح الابيات . ان الاساسى فى كل هذا وضع الشاعر ، فهو يعانى مقاسيا بصدق ومرارة ســـوء الحال ، بل سقوط اصالة الانسان ، ويجد نفسه مضطرا ــ لامختارا ــ ان يعانق الذين هم موضوع للجوع ، والسلب ، واكثر من هذا الذين فقدوا شهية الحياة . ان الشاعر الذن يعقلن مساره ، ويقدم لاختياره تبريرا يفرزه من المعاش ذاته .

« هـــوايتــى يـــا اصدقـــائــى الفقـــراء
حفظ عهـــودكـــم و حبكـــم
وأبنـــاء الذيـــن يخدعـــونكـــم
يجـــوعـــونكـــم
و يسلبـــونكـــم
شهيـــة الحيـــــاة »

ولكى نعود الى السؤال المطروح : من هـــو الشـــاعر ؟ انه رآوية وشاهد راوية يدين . وأدانته صريحة لايعتريها أى غموض . وشاهد يرى ويعايش ويعانى . الرؤية ــ الشهادة والمعايشة الكاشفة للحقيقة والزيف ، والمعاناة الناتجة عن مرارة الحياة : « يسلبونكم .. شهية الحيـــاة » . هذه العبارة الشعرية تترجم قساوة الشعور بالحرمان :

« هوايتــي يــا ســادتــي الامــاجــد
هــوايتــي روايــة و شــــاهــد . »

زمنيا تتحدد القصائد المدونة ما بين 1966 و 1967 . ثم يقع انقطاع يستمر حتى حدود عام 1973 و 1974 .

وفترة 1967 ، تقول أكثر من شيء بالنسبة للعالم العربي . وفيما يخص الشعر العربي المنتمي الى المدرسة الحديثة ، فانه الشكل التعبيري الذي شكلت عنده غصة — ميلادا أكثر من اي شكل تعبيري آخر . وهذه الفترة — الصدمة جعلت الكثيريــن يستفيقون . ويمكن تقديم نزار قباني مثالا ناطقا لما نقوله هنــا والصحيح ان هزيمة 67 لم تكن تخص خريطة دون الاخرى ، من خرائط الوطن الكبير . هذا فيما يتعلق بالجماهير جميعها ، اما الشعر والشعراء فقد كان الاحساس بالضربة اشد ، وادق . فاين موقع المليــاني من هذا ؟ :

« حطمت صلبــانــي
لملمت اشــلائــي
انتصبت ، نفضت عن وجهي الغبار
وجئت اخترق الحــدود
صلبــا عنيــــد
(. . . .)
الثــار يصــرخ بــي تعــال
والدرب يهتــف بــي تعــال . »

طبعا لا يمكن الادعاء أن قصيدة « عودة الغريب » . التي نستقي منها هذه الابيات ، كتبت ردا فعليا على احداث 67 .

نحن لا نزعم هذا ، كما أننا لا ننفيه أيضا . لكن مؤشرات تبعث على اعتناق ذلك مع بعض التحفظ . ان القصيدة تلك كتبت فى الفترة المشار اليها . وهى فى نظرنا لا يمكن ان تخلو من ذلك الحمل . الحمل الذى ((وفرته)) الهزيمة للشعراء – البعث . والملياني واحد منهم . فهو يعرى لنا نفسه منذ البداية ((ابحرت فى عيونكم ، صلاة / على جناح غيمة كالحة تنوح / ابحث عن الاه / .)) وهذا التأشير ليس زمنى الطابع فقط ، بل انه نصى ايضا ، فهو يقول فى نفس القصيدة السابقة الذكر :

((– (فيا نداءاتى افيقى
يا جراحاتى افيقى
مزقى الاكفان عنك . .
و ها انذا أعود
و حطمى الصلبان وانطلقى . .)
اليك انسانا جديد
فجرا وليد
املا بطوليا جديد .))

انه يقف مع الرأى الاخر ، ويدين الرأى الرسمى . ويبغى ان ياخذ الثار . وهو هنا لا ينسى . بل يحمل معه قضيته ولا يتوقف . بل يدين ايضا الوقوف . وهو لا يسترحم ، بل يضع نفسه وكلمته فى خط المواجهة . ويتسم كل ذلك بايمان . يتم التعبير عنه بشعر – فعل ، يحس القارئ المتبصر ان الشاعر غير جالس الى طاولة يكتب ، ولكنه ينطق شعره وهو يعيش فعليا حركة ما . والحق انه مجرد احساس . ولكن الشعر حين تكون هذه طبيعته من حيث يستقى مهمته ، فى الوقت الذى يكون

الوضع العام كله يجر نحو الصراع ، يبقى هو الشعر الذى تعانقه مرحبة الجماهير المثقفة ، والجماهير المتعلمة فى بعض الاحيان . وليس من شك فى أن الجماهير المثقفة ، المنظمة والمنضبطة ، لها دورها فى حركة التاريخ التى تتقدم ، او تعمل من أجل أن تتقدم . المليانى لا يبكى أو يتباكى ، هو يصيح ، ويعلن العداء ، بعد أن يبرر ويفهم ان الطغاة يعادونه ومن يمثل . ثم هو يضع نفسه ناطقا باسم ((أصدقائه الفقراء)) . وصداقته للفقراء تعلنها قصيدة الديوان الاولى ، منذ البدء .

قلنا ان اشعار المجموعة تتحدد فى الزمن بين 66 و 67 ثم يقع انقطاع بعده عودة اطلت بين 73 و 74 .

على المستوى المحلى ، كانت انتفاضة الجماهير فى مارس 1965 ، حدثا تولد عنه جمود سلبى أستمر حتى بدايات 1968 . ونحن نلمس شعورا بالخيبة ، وفى نفس الوقت نلمس لدى الشاعر تحسسا لطبيعة الخلاص الذى يريده هذا الشاعر . والخيبة تلك نكسته هو ، كما نكست الذين ((أبحر فى عيونهم)) ، والمقصود بهم أصدقاؤه الفقراء الذين يفصح عنهم فى الفترة الثانية من ديوانه ، أى بعدما يكون هو نفسه قد استراى موقعه ، والمكان الذى ينبغى ان يحتله . فقد كانت الانتفاضة بحثا عن خلاص . والشاعر يبحث عن الاه . ويسافر شراعه ، لكنه يعود مكسرا . والبحث هنا بحث عن مدينة الشاعر الفاضلة ، لكنه بحث تاملى، وهذه سلبيته ، والانتفاضة كانت رحلتها فعلية . ان المليانى لم يكن مع أصدقائه ، ولكنه اكتشفهم فى وقت ربما كان قد فات ، غير انه يقرر معانقتهم ، والى الابد . ويبدو هذا فى الابيات التالية :

. . . لعلى أعود ، امتطى
جوادك المطهم العنيد

احمــل سيفــك المطعــم العنيــد
فمــد لــى يديــك مــد لــى يــديــك
يــا مسيــح يــا مسيــح يــا صمــوت
لــعلنــى أولــد أو أمــوت .

فمن هو مسيح الشاعر ؟ هل هو هذا المخلص الذى ينتظر أن ينقذه من « بحيره المساء ، حيث يشرب المراره » ، ام هو الشعب الذى يطلب الشاعر أن يمده يده . الحق أن القصيدة تضرب على وتر غامض ، لا زال الشاعر لم يتصنت بعد على رنته . انه يحيى تناقضات عدة تترجمها هذه القصيدة « أغنيات مبتورة » ، تناقضات يحملها الواقع نفسه . ومع ذلــك يتنسم القارىء أن هذا الواقع جد متقدم على الشاعر . وهذا التقدم هو ما جعله ، يحس فقط ، أنه ينبغى أن يجر نفسه خلف هــذا الواقع . ذلك ان الشاعر غير متبين هنا لجدلية الصراع ، فهو ينعت مسيحه بالصموت . واذا اتفقنا أن مسيحه هو الشعب ، فان الشاعر ، يغيب عنه هنا أن الشعب لا يعرف الصمت ، وأن ما يعرفه فى الحق هو الصراع حين يكون متضررا ، لكن صراعه ليس استمراريا وخطــا مستقيما ، بل هو صراع حلزونى دائرى متداخل ، تحكمه قوانين تطور داخلية ، لابد من أجل استبصارها بالوعى بها ، وهو ما لا تترجمه القصيدة المشار اليها ، وأخريات بعدها تنتمى الى فترة الديوان الاولى . وكلها تضرب تقريبا على وتيرة واحدة ، هى انتظار منقذ ما ، منقذ يخلص موضوع الشاعر مما يعانيه . وهذا ما يتجلى بوضوح فى قصيدة « هدية الفارس الشهيد » حيث يحلم الشاعر من مكان تعس ، يحس التناقض بينه وبين المعاش ، احساسا لا يفرز وعيا ناضجا بصوره وطبيعة الصراع بين القوى المحركة للتقدم ، والقوى المنــاهضة لهــذا التقــدم . وهــو حلــم كثــر مــا نجــده عنــد المــواطــن

العــادى ، الغير مثقــف ، يعيش انتظــار مجيىء مخلص مــا ، دون تحديد لوجهة وصورة المخلص ذاك ، اى دون تملــك لاى تصور واضح ، ذلك أن الانسان العادى يرى مستغليه ((مغولا)) كما يراهم الشاعر ، وقد يشبههم هو الآخر ((بالتتار)) ، بلغته الخاصة ، ومفاهيمه الخاصة طبعــا :

((يــا فــارس الاوراس
أراك فوق قمم الجبــال تمتطــى
جــوادا من نحــاس .))

ويستمر الشاعر فى قصيدته فى تحديد صفــات فــارسه ، وتحديد أصدقاء هذا الفارس الطيبين ، من ((النســاء والشيوخ والايتــام)) الذين يحملون الورود له ، مصفقين مهنئين لمجيئه ، وان كان قد حمل معه ابناءهم ، وازواجهم ، اذ هنا تتم الدعوة لاتباع الفارس ومعانقته من طرف هؤلاء الاخرين ، الى ان يقول :

((حصــانــى لادهــم لــك ..))
((و سيفــى ابتــار لــك ..))

فى هذه القصيدة ، وبعدها بالاخص فى ((رحلة فى جــزر الضياع)) ، يبدو الميانى انسانا يبكى على شعبه ، ويرثى له ، متاسفا (!) على مضغه الشقاء ، وشربه الدموع ، على موائد الحرمان . وهو يرثى لحال شعبه هاته ، لانه يحب منه ((مرحة الصغار)) و ((غضبه النسور ، والاسود)) . انه بكاء استسلامى يتبعه دائما تعشق لبديل ما ، ياتى من المجهول . ان الشاعر يعى أن ماساة شعبه ليست وليدة وضع جديد ، قام منذ زمن قريب ، او نتيجة حالة مفاجئة ، اذ هو يستوعب حقيقــة تلــك الماساة ذات الجذور الضاربة فى العمــق ، وذات العــوامــل التاريخية والاجتماعية الغارقة فى القدم ، حيــث تم الغصــب

القهرى على كافة المستويات الاقتصادية والاجتماعية والفكرية ، وتم بسالى دمعه الى هذه الدرجة من الاستغلال والقسر ، حيث يقرأ الشاعر غرابة رفيقه ((الشعب)) وقصه وجهه الحزين ، وضياعه . ونحق ان قصيدة ((رحلة ..)) وقصيدة ((عيسك والغربة)) ، تحملان معهما نزعة ماساوية بكائيه ، يشتم منهما اليأس اكثر من أى شىء آخر ، وان كان هذا اليأس متوقعا فى برهة حلم ، برهة انتصار ، برهة تتم فيها نفس التسبحة ، دون محاولة تجاوزها . فالشاعر لا يملك شيئا غير ان يستقصى الام شعبه بعمق وفراسة ، دون محاولة تجاوز البكاء والرثاء الذى يستضيف العمل ـــ الفعل . وهذا يعنى المليانى ، وهو يخشى ويحترق فى ((ليالى غربته الحزينة)) ينتظر على الضفاف . وفى عملية الانتظار هاته ، ما يلبث ان يدرك سلبيه بكائه ـــ هو كشاعر يريد أن يوهمنا أنه يستقى بكاءه من بكاء حبيبه ـــ بلده ـــ فيطلب من حبيبه أن لا تفجر ضفافه دموعا ، آذ هو ينتظر الفارس المضيع الغريب ، والذى يضيع فى شماتة الزمان . والشاعر ينتهى تماما بمجرد أن يضيع فارسه :

ـــ ((ضياعه ضياعى

ـــ ضياعه ضياعى))

خلاصة القول أن كل قصائد المرحلة الاولى باستثناء مقطوعة ((عودة الغريب)) تقف وقفة اليائس ، ولكنه يأس كثر ما يستفيق لا ليفعل شيئا مهما غير أن يحلم حيث هو ، وغير أن ينتظر . وفى ((عودة الغريب)) يحاول المليانى أن يمزق اكفانه ويحطم صلبانه ويلملم اشلاءه ، كما سبق أن قلنا ، وهى محاولة فرضتها النكسات التى اصابت الجماهير ، والتى تنعكس فى أبيات أغلبية قصائد الديوان . والقارىء يتكشف له وهو يتابع ما نقول تناقضا واضحا فى موقف الشاعر : ففى قصائد يبدو شجاعا متجاوزا

للنزعة البكائية، محاولا ان يصمد، ومحاولا أن يبحث ذلك البحث الجدى ، وفى قصائد أخرى يبدو منهزما مستسلما متباكيا منتظرا كما سبق أن سطرنا . وحتى انتظاره ينتهى بالانتكاس حين ينتكس فارسه . وقد تعمدنا — عن وعى — أن نعكس هذا التناقض فى هذا التحليل قصدا منا ، فى محاولة محاكمة ذلك الحكم القاسى الذى يحكم به المليانى على واقعه ، والحقيقة أن الواقع الموضوعى السلبى هو الذى طغى على مسار قصائد المرحله الاولى .

وواضح من القراءة الاولى للمجموع الانتاجى فى الديوان، واضح الفرق بين مسار الشاعر فى المرحلة الاولى ، والمرحلة الثانية . أن هذه هى الاخرى تحمل فى تحشائها أحداثا تاريخية ذات مغزى كبير ، على المستويين : الجماهيرى والرسمى . فقد سجلت تحركا جماهيريا كبيرا فى اهم المواقع العربيه ، حيث يحتد الصراع بين موات العدم ، والقوى المعاديه للاصالة الانسانيه ، تلك القوى الرجعية ، الحليفه للامبرياليه العالميه ، والتشكال الاستعمارات المحتلفة الالوان والسلوك السياسى ، كما سجلت قمعا شرسا انصب على التحرك الجماهيرى هذا ، قمعا طبع بالدماء والاعدامات . وفى نفس الوقت ، خاصت الانظمة الرسميه مع بعض الحماس من الجماهير المريضة ، حربا بورجوازية خاطفة ضد العنصر الصهيونى الاستيطانى فى فلسطين المحتله . وكان لهذا الحرب أن انتصرت انتصارا نسبيا ، ما لبث أن ضاع تحت سياسة الارتداد والسقوط ((الصافى)) فى أحضان القوات المعادية للانسان ، فتمت التراجعات متسلسلة ومغلفة باغلفة تنظيرية عديدة ومختلفة ، وذابت على اثرها كل مكتسبات الحرب البترولية . فى هذه الفترة لم تكن الجماهير المناضلة محايدة ، بل كان لها موقفها المتقدم والملتزم ، وأدت ثمنه غاليا ، كما هو الامر دائما . فى هذه الحقبة كتبت قصائد المليانى فى الفترة الثانية من ((التزامه الشعرى)) .

ان الشاعر يبدو فيها أكثر وعيا ، وأكثر تحديداً اذا صح التعبير . فهو يعترف بضراوة المعركة ، ويسجل ما تعرضت له الجماهير من قمع شرس ، يسجله في طرح ما يمكن أن يمارسه هو حين يتخلص من قيده . ان ما تمتاز به هذه القصائد هو الوضوح ، والاستيقاظ ، ومحاولة اقامة نوع من المواجهة التي يطبعها التحدي والوعيد :

« بيني و بينكم حساب —
لا مفر لكم غدا
مروا على كل الضحايا
مزقوها — مزقوني ما أزل أحس
ينبض في جروحي الفجر ، يصرخ بي »

وادانة الديوان تظهر أكثر في هذه المرحلة : « وأعرف أنكم حقراء / وأحقر الحقراء / ما انتم سوى عسس / لصوص، جوف اعرفكم . / (من قصيدة « المعرفة ») . ولكن وعي الشاعر لا يظهر في الثقيفة التي يتطلبها وقعه . فهو — الوعي — وان كان أكثر تقدما بالنسبة للماضي ، فقد بقي يحمل معه رواسب الفترة الاولى . وهكذا نعود فنقرأ في قصيدة « تنهيدة » نفس ما نقرأه في قصيدتي : « رحلة في جزر الضياع » و « عيناك والغربة » والاولى والثانيتان تنتمي الى حقبتين مختلفتين على مستويات عدة . والحق ان هذا ما يطبع مجموع الديوان . ولكن ومن جهة اخرى ، نجد الشاعر ينقل بامانة شعرية كبيرة ، ما يجري في ساحة الصراع ، سواء منه ذلك الصراع الجماهيري العريض ، أو ذلك الصراع البورجوازي الصغير والانتحاري وان كان مخلصا في نيته ، غير أن هذا لا يكفي البتة . اذ اننا نشعر وكانما الشعر هو ذلك المقاتل ذاته ، خاصة حينما نقرأ

وعده ووعيده . وفى الديوان ادانة كبرى للعناصر التى تخدم الواقع موضوعيا بسلوكهـا ، ادانة لمثقفى المقـاهى ، ومثرثرى الصالونات ، ويطرح الشاعر ذلك كله فى شكل مقابلات جريحة . وذلك حين يقابل بين رواد المقاهى ومثقفى الجرائد ، وبيـن نزلاء السجون ، والذين « ذهبوا » ليرقدوا فى « بيوتـات » المقابر ، وفى هذا الاطار يحرك الشاعر كل قضيته ، وكانمـا يتعب فى مسيره ، ويلخص قضيته نقول فى مقطوعة « ايمان ». قصيدة من اربعة سطور شعرية ! لكنها تقول كل شيء . وفى هذا الاطار ، تنبعث قضية الشاعر كذلك ، فى مطولة : « مقاطع من كتاب « شفاء السائل » . هاهنا يمتزج المليانى بمواطنته ، وبمحاولة انتمائه — شعريا — الى قافلة المقهورين على امتداد تاريخ طويل . ويستدرج مستغلا (بفتح الغين) انهك تماما ، ومع ذلك ما يزال « يستجلب » القدرة على الوقوف والمقاومة. ويحاكم الشاعر كل شيء ، بموسيقى تراتبية وحزينة جـدا ، يحاكم فكر قومه ، وماضيهم وحاضرهم ومآسيهم المتجسدة فى كافة تشكلات الحياة — الموت . ويقف طويلا يحاور شهيد الطوار ، ورائد المقهى ، وحبيس الاغلال ، وكتب التاريخ والثقافة ، الخ .. ويسير المليانى ليستبصر ملاحم كثير من ابطال بلاده مجسـدا ذاك فى مناضلين معروفين ، مثل عبد الكريم فى قصيدة « عبد الكريم انا واتوال » . وكل ما سقناه نظهر ايضا فى كثير مـن قصائد الديوان المنتمية الى الفترة الثانية مع اضافات لهـا اهميتـها .

شـاعرية واعـدة ، تحمل معهـا التسـاؤل والرفض .

ان قراءة بسيطة لتجربة المليانى ، كافية لان تظهر صدق معاناة الشاعر لقضيته . وتظهر « قساوة » هذه المعانـاة .

ولكن الذى ينقص من قيمتها الى حد ما ، هو تقوقعها فى عالم الذات . وقليلة هى القصائد فى الديوان التى تحاول استشفاف معاناة الآخرين ، مع التاكيد على ان الميانى يبين بوضوح كامل عاهة وسطه ، وعذابات الآخرين ، ناطقا باسمهم : « حتى ولو قلعوا جفونى والاظافر لن اخور / حتى ولو قطعوا لسانى لــن اخور / حتى ولو القوا بلحمى للنسور / (. . . .) حتى ولو شردت / حتى ولو جوعت / حتى ولو أسلمت / حتى ولــو اعدمت / لن استكين ولن الين ولن اخور . /. هذه مضاعفات الرفض . وهذا موقف الشاعر منها . كل شىء واضح . كل شىء صريح . مباشر . يتذكر القارىء على الفور قصائد شعراء الفلسطينيين الاولى . قصائد تحكمها المباشرة ، الى حد انها تبرز فى بنيتها طابعا خطابيا بينا . ومتابعتها التى لا تستدعى كثيرا من التامل ، تؤكد على رذاذ شاعرية واعدة ، اكثر مــا تصطبغ به هو الرفض . وهو رفض غير مسبوك فى خيط مشدود الى ارضية ذات خط مستقيم ، بل يحكمها المد حينا والانتكاس حينا آخر . وهذا المــد ــ الانتكاس يؤثر فى المضمون اكثــر ممــا يــؤثــر فــى الشكــل . بــاستثنــاء هــذه النبــرة الحزينة التى تصــاحب كــل قصــائد المجمــوعة . انه حزن ، يبدو انه من مكونات عالم « فى مدار الشمس رغم النفى » . وهو حزن غير مفتعل بضغط ازمات ذاتية ، بقدر ما هو وقــع واقعى يستبد بحياة وسط الشاعر . ومن هنا تظهر ايجابيته . ليس هناك ابيات تشير الى تفاؤل الشاعر . وبالمقابل لاتوجد اخرى تجسد تشاؤما ما .هناك تباكى فى بعض القصائد . وهو موقف سلبى حداً . وهناك بالمقابل ايضا حلم مستبد وضاغط ، وقد يحق القول انه هو رائد الشاعر الاساسى . وهذا كله ، هو ما يؤسس بنية القصيدة لدى الميانى . قصيدة تفتح طريقها ، وهى واثقة ، ولا نملك الا ان نصفق لها مع التشديد على تصحيح

طبيعة التعامل الواقعى . وهذا مطلب على الشاعر تحقيقه ...
ثمة نظرة نؤمن بها : فى بداية كل حركة تصادم ، وبفعل وجود قوى تقدم وقوى تقهقر ، وبفعل تفجير كبت قديم من طرف القوى الاولى ضد الثانية ، وبفعل عنف الـرد الردعى ، لا يملـك الشاعر ، القصاص ، التشكيلى ، الروائى ، الا ان يكـون حماسيا فى التبليغ او التصوير ، ولا يملك الا ان يكون وعيديا منذ الوهلة الاولى . وما تلبث ان تقع منعرجات ومنعرجات تنضغط وترتخـى ، فيتعقد الواقع ، ومعه يتعقـد السلوك . هذا يؤثر فى الشكل التعبيرى ويوجهه . ومن هنا يظهر ان مسالية الغموض ، ومسالية الوضوح ، ليست اختيارا . انـه انضباط للوقع فى الواقع . وبالطبع هذا لا ينطبق البتة علـى الذين يلجاون الى الغموض من أجل الغموض . وتلك المنعرجات السابقة الذكر ، ليست وحدها تؤثر فى الشاعر ، بل هناك ذاته ايضا ، وهناك قراءاته ، وهناك اتساع اهتماماته وضيقها ، مع العلم ان اهتمامات الشاعر ومعرفيته ينبغى ان تكـون واسعـة وعميقة بما فيه الكفاية . اذ لم يعد الشاعر هو ذلك الذى يخنق نفسه فى عالم الادب والشعر، بل هذا الذى يمتد تطفله العلمى الى كافة معارف العصر الاساسية ، بما فيها العلوم البحتة . ذلك لان المفروض فى الشاعر هو ذلك الانسان ـــ الاصالة . وعليه فان كل نتاج انسانى يجسد اصالة الانسان هو مغنم للشاعر كتخريج يمكن القول ان الديوان يقف فى المرحلة الاولى من التفاعل مع الحركة الصدامية . ولكن هل نرجو للشاعر الانتقال من تلك الى مرحلة الغموض التام . ذلك ما لا نتمناه ابدا . لقد وظف الشاعر التاريخ والعبارة ـــ المثل المتداولة والرمز والالفاظ ذات الدلالات المعروفة عند الجميع . كل هذا ساعد القصيدة عنده على الاخذ باذن وفكر القارىء .

ان تجربة الشاعر تجربة تحركت ثم توقفت زمنا لتتحرك من جديد ، كالواقع الصدامى تماما . ولكن التوقف فى حد ذاته كثر ما يكون مفيدا ، بالنظر الى ربطه بالمراجعة والتعميق . وهو شرط اساسى فى تعامل الشاعر مع القصيـــدة . الامتـــداد ، لانقبـــاض ، اللم ، البسط ، هى القوانين الداخلية الفاعلة فى القصيدة الحديثة . فهل تاتى للشاعر القبض عليها ؟ ذلك ما ستجيب عنه تجربة الشاعر ، ونقصد القصائد التى كتبت مـــن بعـــد . . .

خلال مصطفى

احمد المصباحي

الارض الطيبة

(اقصوصة)

ينساب ، عبر الشارع مكسرا برفق ، سكون الليل ، مخيم على ربوع المدينة . اضواء الاعمدة انعكست على صفحته البيضاء المتلألئة ، يتسلون بالنظر اليه ، في جو تتخلله مسحة من المهابة . عادت به الذاكرة الى الوراء ، احداث مؤلمة ساهم في رسم معالمها سكان الحي دون اعتبار لفاصل الجنس او السن ، حول الحنفية انتفت الحواجز واصبح من النادر الا نشهد اشتباكات ومعارك يكون الماء آخر سبب حدوثها . بالشقاوة اهلي ، ها هي ، على بعد خطوة ، تتدفق مياه غزيرة ، صافية كفيلة لاطفاء غلتهم ، ها هي ترسل انينها ليل نهار لمصير القنوات تنتهي اليه ، ولا احد يهتم لشكواها . لو كانت مادة جامدة لحملتها اليهم قطعة قطعة ، ووضعت حدا لتقاتلهم من اجل شربة ماء كدرة .

تشرق الشمس و « سي الحاج » يقطع الارض جيئة وذهابا ، منتكس الراس . يتاهب لصفعة تطير صوابه .

ـ ما الخبـــر ؟

ـ حضر المهندس ؟

ـ مـــاذا قـــال ؟

ـ كلام لا يبشر بالخيـــر !

ـ كيـــف ؟

ـ الخطر أبعد مما خمنت !

ـ اليس مجرد بئر كما قدرت ؟

ـ لا ، لو كان كذلك ، هذه المهلة كانت قادرة على جفافه

ـ الخطر يكمن فى مزيد من الانتظـــار ؟

ـ لا يا سى الحاج ، العمالة أصبحت طرفا فى الموضوع أيضا !

ـ ما شانها بهذا ؟

ـ أخبرنـــى المهندس ، انقاذا لمصلحة البـــلاد !

ـ اللعنـــة عليه وعلى خبرتـــه !

عاد الى وضعه السابق ، ابتعد عن المقاول « سأجن اذا لم ينحبس هذا الماء اللعين ، عشرات الملايين تحولت الى ماء تبتلعه قنوات الشارع ، يا لحظى التعيس ليتنى اكتفيت بالمضاربة العقارية ، ليته كان منبعا مـــن التراب أو الحجارة او .. او .. لوجدت حلا ، اما أن يكون نهرا وللنهر ، لا شك، علاقة بالبحر ، أمر يبعث على الجنون ... » عمال البناء يتظاهرون بأداء أعمالهم ، آذانهم مشدودة الى المتحاورين . رنت بسمعيه كلمات « النهر » الماء اللعين . التراب . البحر ايه ما أطيبك أيتها الارض ، ضاق صدرك ، لم تعودى تحتملين المزيد ، عليك تخاطفت الايدى ، تتاجر ببكارتك ، تنهب خيراتك، تستنزف كل ذرة من تربته المعطاء ، وتبقين أنت دون زميلاتـــك عانسا ، تفتقدين حرارة الحياة ، ضربوا حولك سورا مـــن

خشب مثيرا للتقزز ، ومن ورائه وفوق صدرك عقدوا الصفقات المربحة ، لا يستطيع احد خبرهم ، فيما اجزم الجميع بعقمك تجاه هذه الساحة الجميلة المختنقة بالبنايات والمرافق العمومية، بخيانتك لابنائك ، اعياهم البحث للارتماء بين احضانك ، أهلى هناك ضاقت بهم « البراريك » فجعلوا مــن الارض فراشا والسماء غطاء، وأهلى هنا يقاسون ذلك واكثر منه ، وانت تتجاهلين ، تأبين ان تشق صدرك فؤوس العمال عاقــرا ، جحودة حسبوك ، ولكنك اعلنت للعالم ما اقترفه فى حقك أناس لا هواية لهم الا سرقــة الغير فى وضح النهار ، فليهنأ الذين ارهقهم البحث عن مأوى ولم يجدوه وليخسأ أولئك المتنفخـة بطونهم .

ــ مــاذا تــرى ؟

ــ لا تهتم لتدخل العمالة ، ستلزمك مصاريف اضافيــة

ــ الا نستدعى خبيرا آخر ؟

سأفكر ، دعني انصــرف .

تميل الشمس للغروب ، ويوما عن يوم يتاكد لدى الحاج أن الماء يزداد تدفقا « أين مشروع العمارة ؟ ستكون باعتراف الخبراء أول نموذج يحتذى ، خاصة بايواء عشرات مكاتــب الشركات ، مر شهر واملى فى عودة المياه الى مجاريها يضعف ويتلاشى » .

حركة الحياة تهدأ رويدا رويدا ، بقى منها صوت ذلك الخيط الفضى الرفيع .

لم تطرق بابهم اية زبونة ، يقضون معها لحظة ممتعة ، تدفئها نغمات ناى شجية ، دقات صفائح سوداء ، يثرثرون فى

امور شتى الا واحداً شرع فى نزع ملابسه ، الجو دافىء والماء طاهر ليس كماء الانابيب فلم الخوف ؟ وغــدا موعده مــع صديقته ، ويجب ان يبدو امامها على هيئة مقبولة ساصحبها معى ، زملائي لن يعترضوا ، سكان الحى نجحنا فى كسب ثقتهم ، فقط حارس العمارة المجاورة ينبغى التحايل عليه ، سأقدم لها هدية وأطرح عليها فكرة الزواج ، ولم لا ؟ فلن تجف للماء عين ولن نعرف بعد اليوم تشردا فلماذا لا نتزوج كباقــى النــاس ؟

الدار البيضاء ، ا. المصباحى

ادريس كـــرم

همـــوم

(أقصوصة)

نصـــول فى مقدمـــة

وحلكم يا صاحبى ليس كالاوحال ، أو حالكم خط واحد من فوق الارض الى أعماقها ، العشق لديكم مزروع فى الوحل ، قبلاته اكثر حرارة من الشمس ، حتى الوحل يذوب صبابة لاهله، فلا غرابة ان يموت عروب ، وعبد القادر ، ورزوق ، وبوشعيب من أجل شبر ، من اجل اقامة حـــد .

الحد ، وكثيرة هي مشاكل الحدود ، وغزيرة هى دمـــاء الحـــدود .

الحـــد ذلـــك المـــوســـوعـــة .

كان قائدا ، وابوه كان قائدا ، وفى وقفة مع جماعة لاقامة حد فى ارض جماعية قال جوابا عن سؤال بانه سيبقى قائدا . ((من قال لك انى سازول يـــا حمـــار ؟))

بيد ان خلافا على حد وقع بين بعض الالهة أدى الـــى اسقاط نفى القائد ، وكما كان للاب اله فان للابن اله وفى ذلك بقاء ارض ((الروكى)) فى الوسط بائدة ما دام يابى التنـــازل

عليها ببيعها او رهنها او كرائها ، ستبقى هناك آلى ان يحين وقت اقتناصها منه وانفه فى مياه سبو العكرة يجيف ، فلا يمكن أن تكون للسراح ارض مجاورة فاحرى وسـط مزارع أبنـاء القيـادة .

الحـد مـن جـديـد :

ململ الروكي رجليه فوق الحمارة فى طريقه الى السوق وهو يروى لمرافقيه الفقيه على والفقير محمد ولمعلم ابراهيم قصته مع القائد الجديد الذى سجنه لانه نبهه وهو الامى الى أن ارض الجماعة يفصل فى مشاكلها ممثلـوا وزارة الداخليـة

ضحك الفقيه وقال له :

ــ الحدود المحدود يالطاهر ... هاها .. لم يرض أن يكون هناك من يعرف القانون فى القيادة غيره .

وفى باب السوق كان هناك حراس وجابى ، وكان الازدحام بين الدواب والحراس وبائع التذاكر يسهل مامورية اختلاس ثمن التذاكر مكنت ترى هذا المنظر فى كل الابواب :

ــ آر .. ار .. ارا لينا لوراق .. حيد رانا خلصت وما اعطانى ورقة .

المخزنى لجماعة الروكى : هاتوا الاوراق .

بائع الاوراق : دعهم السى المخزنى .

بعضهم : هـات لنـا الاوراق

المخزنى يضرب الحمير : زيدوا ، ادخلوا وكفى كلاما فارغا .

الجماعة : نريد الاوراق أولا .

لمعلم ابراهيم : هذه سرقة ، السرقة فى كل مكان حتى فى باب السـوق

الطاهر : انده الفقير .. تقدم

المخزنى : تعال أنت ، اين الورقة

الفقير : لم تعطونى رغم انى اديت

المخزنى لصاحب التذكر : السى احمد ، هات الورقة للفقيـر واسرع فاقتمس حارة عليه وهو كبير السن .

الفقيه : انه الخوف ، يعرفون انك ستفضحهم لذلك فهم يعملون معك القانون .

الفقير : أولاد الحرام ياسيدى .

الفقيه : صدق من قال ، ينزع بالسلطان مالا يؤخذ بالقرآن

يوم القيامة له فى كل سنة مظهر جديد :

البراح :

لا اله الا الله . أيا لقبيلة ، نهار السبت 10 فى الشهر الجارى سيبدأ أداء الديون : السلاف ، والقرض ، والضريبة ، القديم منها والجديد واللى ما خلصش كيلوم راسو . لا اله الا الله .. لمعلم ابراهيم : هذه مصيبة ، الناس عاد بداو فى الحصاد وهم يملنون عن أداء الديون القديمة والجديدة .

الفقيه : صدق من قال ، ينزع بالسلطان مـالا يؤخذ بالقرآن لا تساوى شيئا . هذه مصيبة فى قبيلة احجاوى (قبيلة باقليم فاس) .

بدا الاداء والذين لا يؤدون ترسل اليهم سيارة او شاحنة حسب العدد فتاتى بهم الى المركز حيث يحبسون الى ان يؤدوا، واذا لم يوجد المعنى بالامر فى المنزل اخذت زوجته او احد ابنائه المهم الاداء باى ثمن •

الطاهر مبتسما : حتى هم اكلوا الزرع فلماذا لا يذهبون الى الحبس •

الفقير : انها مصيبة ، يرغموننا على اخذ السلف وعلى ادائه كيفما ارادوا وباى ثمن يشاؤون •

المعلم : كى ياخذوا الناس للحبس ويملئوا جيوبهم •

الفقيه : هذه الاشياء تطبق فقط على الفقراء اما الاعيان فعليهم بالملايين ولا احد يسال عنهم •

الروكى : هذه الاشياء توجد فى البادية فقط اما المدينة فالكل على مايرام •

الفقير مبتسما : انت ما زلت خاطئا آلطاهر ، كل واحد له هموم على قدر مستواه ، انت لا ترى الا شارعا واحدا فيها حيث المحكمة فتنبهر لانك ترى السيارات والموظفين فتحسب ان الجنة هناك، انت تعرف ان ولدى موظف هناك ، هل تعرف انه يسكن بيتا فى سطح عمارة بثلاثة الاف ريال اذا أضفت لذلك ثمن الطعام والدخان فانه يجب أن يخرج الى الشارع ليستجدى المارة أن ارد ان ينهى الشهر هناك ، ولكنه يجمع من هنا وهناك حتى يتسنى له ان يعيش •

الفقيه : هل يبعث لك بشىء ؟

الفقير : ماهيته قليلة ومع ذلك يرسل لى احيانا ، تمنيت لو انهم تركوه يدرس ولم يطردوه •

آخـــر المطـــاف :

ينصرف الجميع لقضاء مآربهم ويبيع الناس ويشترون ، وتجمع الضرائب وترتفع قبضة بروتس فوق رؤوس البعض وتنزل الرحمة فوق البعض ، وتطيح جيـــوب البعض بحـــدود الكثيرين وتبقى أرض الغـــرب تعـــانق باوحالها أرجل محبيهـــا الحقيقيين وتغطي بغبارها جلابيبهم البيضاء وعمائمهم فلا يزيدهم ذلك الا صموداً وتمسكـــا بهـــا .

ادريـــس كـــرم

محمد ابراهيم بوعلو

الحوت .. والصياد

(اقصوصة)

لم يلتفت الى زوجته عندما وضعت السلة بجانبه ، بل ظل مسمراً بصره فى النقطة التى يلتقى فيها الخيط بصفحة الماء ... وسمعها تقول : ((لقد حملت اليك غذاءك عندما تأخرت ..)) وهمهم بكلام لم تستطع تفسيره لذا أضافت : ((لقد قلت فى نفسى لابد أن يأكل المسكين قليلا من الطعام حتى يمكنه ان يستمر فى عمله .. ولذا حملت اليك السلة ..)) ولم يجبها بشىء ، بل انتظرها أن ترجع من حيث أتت ، ولكنها ظلت فى مكانها لا تتحرك ..

وظل هو مسمراً بصره على الخيط من غير أن يحرك القصبة الطويلة التى بين يديه ، وكأنه أصبح يشكل مع هذه القصبة قطعة واحدة لا تتجزأ ..

وتعبت الزوجة من الوقوف ، وترددت قليلا قبل ان تستأنف كلامها : ((يظهر ان السمك هذه الايام لا يريد ان يأكل شيئا ..)) ولم يجبها فأردفت تقول : ((ولكنك أنت فى استطاعتك ان تفعل ..)) والتفت اليها هذه المرة ، وبعد ان تلاقت نظراتهما عاد من جديد الى وضعيته السابقة لا يحيد عن

قصبته ، ولم تكتف بهذا الجواب الذى أراده أن يكون تانيبا ، واعتبرته فرارا من الحديث معها ..

وتحركت قليلا وكأنها تقترب منه قائلة : ((أشفق على نفسك يارجل .. وتناول قليلا من الطعام ..)) وأحب أن يثور فى وجهها حانقا ، ولكنه أرجا ذلك الى أن ينفد صبره ، لذا التفت اليها من جديد وهو يحرك رأسه عدة مرات من غير أن تفهم هى من ذلك شيئا ..

وظلا صامتين لبعض الوقت الى ان تحركت تريد العودة ، فقالت للغلام الذى يرافقه : ((لقد حملت اليك أيضا بعض الطعام ويمكنك ان تأخذه متى تشاء ..)) فشكرها الغلام وهو ينظر الى ((معلمه)) الذى اخذ يهمهم على عادته ..

وقبل ان تبتعد الزوجة سألت الغلام : ((الم تذهب معهم لتأخذ نصيبك ..)) فحرك الغلام رأسه بالنفى من غير ان يقول شيئا ..

وابتعدت الزوجة تماما ، فاخرج الصياد نفسا من الاعماق وكأنه يريح نفسه من حمل ثقيل .. والتفت الى الغلام مبتسما ، وقال له : ((خذ نصيبك من الطعام ، فانت فى حاجة اليه ..)) واقترب الغلام من السلة وازاح عنها المنديل ، ثم اخرج كسرة صغيرة من الخبز بداخلها بعض الطعام ، وجلس يقضمها وهو ينظر الى الصياد ..

وقال الصياد للغلام وهو يريح يديه من القصبة الطويلة التى وضعها جانبا : ((ان للنساء لسانا طويلا اطول من هذه القصبة .. والافضل للمرء أن لا يدخل معهن فى حديث والا فان يكفيه النهار كله ... هات السلة ..)) ثم ما لبث ان

التهم طعامه بشراهة ، ومسح شعر شاربيه بظاهريه ، وعــاد من جديد الى قصبته فى حين ظل الغلام مع كسرته ياكلها فى تان مبالغ فيــه ..

وقال الصياد الغلام بعد قليل : ((لماذا لم تذهب معهــم وتاخذ نصيبك ... ؟)) فاجاب الغلام : ((ولكنك لا تريد ان نذهب))

ــ نعم ، انا لا اريد .. ولكن انت ، ألا تريد .. ؟

ــ بلــى ..

ــ ولمــاذا لا تذهب ؟

ــ فضلــت البقاء معــك ..

ــ ولكنك تريدنى أن أذهب معهم .. ؟

ــ نعــــم

ــ أنت مثل زوجتــى .. وباقى الصيادين .

ــ لناخذ نصيبنا .. فهذا من حقنا ..

وعاد الصياد الى اطراقته من جديد ، وترك الغلام يتلهف على بقية الحديث ، وهو يتعجب من عناد الصياد الذى ما رأت عينه مثلــه .. وتساءل أذا ما كان من حقه ان يصاحبه وهــو على هذه القسوة والعناد .. ولكنه وجد نفسه يسايره حتــى ولو أدى به ذلك الى ان يفقد نصيبه مما ياخذون .

وعادت الزوجة من جديد ، وما شعر الصياد الا وهــى تقف بجانبه ، فاستغرب من مجيئها قائلا : ((لماذا عدت ؟ !)) وانحنت على سلتها وهى تقول : ((حسنا فعلت ، لقد اكلــت الان ..؟)) وزمجر الزوج وهو يقول : ((قطعت كل تلك المسافة من اجل سلة فارغــة ..؟!)) فردت عليه بقولها : ((ولكننــى ساملاها وانا اعود ، لابد من ان ناخذ نصيبنا نحن ايضا.))

ولم يتمالك الزوج من أن يصيح فيها : ((لا شك أنك أصبت فـــى عقلك .. لقد سبق أن قلت لك إننا لن نذهب هناك .. وعليك أن تمتثلى لأوامرى .. أتفهمين !؟))

وأجابته بلطف : ((لقد قلت فى نفسى اذا لم يقبل هو أن يذهب فلاذهب أنا .. أنا على كل حال ليس لدى رأى فى هـــذا الشأن .. أما أنت فيمكنك ألا تذهب ..))

واصطنع الهدوء وهو يجيبها : ((لا .. لا .. ومع ذلك لن تذهبى .. سأحمل اليك نصيبك من الســـمــك الـــذى سأصطاده بنفسى .. لا تقلقى ..))

ــ ولكنك قضيت أكثر من أسبوع من غير أن تصطـــاد شيئـــا ..

ــ أما آلان فسترين أن الاسماك ستنهمر علينا كالمطر.. قليلا من الصبر .. قليلا من الصبر ..

ــ ما رأيت عينـــى انسانا مثلـــك فى الصبر ..

ــ حقـــا هذه هى مهنتى .. أن عليك أن تعلمى أنه لن يمـــر علينا قليل من الوقت حتى تتدفق علينا الاسماك ..

ــ ومن أين علمت ذلك ؟

ــ سترين .. سترين ..

وصمتا لبعض الوقت ، وتعبت من الوقوف ، ثم مالـــت على الغلام تحدثه بهمس ، فالتفت زوجها يسألها : ((مـــاذا تقولين لـــه .. ؟)) وردت عليه : ((لقد طلبت منه أن يذهب، ولكنه فيما يظهر تأثر بأفكارك .. وسيخسر نصيبه كما خسرته أنـــت ..))

وابتسم الصياد وهو يتطلع الى الغلام فى اعجاب وهو يقــول : « سيعلم من هذه التجربة كيف ينبغــى ان تكــون مهنة الصياد .. الصياد الحقيقى لا يمكنه أن يقنع بفتات موائد الاخريــن .. يفضل أن يموت جوعا عتى أن ياكل ما يفضل عن الناس ..انك لن نعرفى قيمة كلام مثل هذا ما حييت..» فاجابته ضاحكة : « اننى لست صيادة ، ولا أريد أن أكون ..»

وانشغل عنها بخيوطه يخرجها من الماء ، ويعيــد تركيب الطعم فى صناراته الثلاث ، ورغبت فى أن تنتصر عليه مــن غير ان تفاتح ، فهو يسد امامها كل سبيل .. لذا سالته ، وهى تحاول أن تقنعه للمرة الاخيرة بوجهة نظرها : « ايعجبك ان نستدين منهم ما ناكل غداً ، وفى استطاعتنا اليوم ان ناخــذ نصيبنا مثلهم ؟..! »

ولم يجبها بشىء .. وحز فى نفسه أن لا يجد فى زوجته ذلك الرفيق المخلص الوفى الذى يشاركه أفكاره ويعتقد بصلاحيتها حتى ولو مات جوعا .. ويشعر بلحظة ضعف كاد معهــا أن يقول لها اذهبى معهم لولا انه احس بحركة تداعب خيوطــه، فتهللت قسمات وجهه وارتقب ان تمسك صنانيره من الاسماك ما يجعله يرمى بها على وجه زوجته متشفيا .. ولكن الحركة فترة مرة اخرى مما جعله ينكمش على قصبته ، ويرهــف انتباهه اكثر من ذى قبل ..

وانشغل عنها بخيوطه يخرجها من الماء ، ويعيد تركيــب حركة الصيادين من حول الحوت الكبير لا تفتر .. فما ان رمته الامواج صباح هذا اليوم الى الشاطىء الرملى حتـــى تجمع عليه الصيادون من كل جهة وكانهم النمــل فى حركتــه الدؤوب ، يقتطعون منه بسكاكينهم قدر ما يستطيعـــون يساعدهم فى ذلك ابناؤهم وزوجاتهم ..

وتحسرت الزوجة على تخلفها عنهم ، مزوجها صدها عن ذلك لان له رأيه الخاص .. ان له دائما رأيه الخاص حتى فى ابسط الاشياء .. لقد أحب ان يقنعها بأن سبب فرار الاسماك من منطقة قريتهم هو خوفها من الحيتان الكبيرة ، ولذا نزحت عن المنطقة حتى لا يلتهمها الحوت الاسود الكبير الذى حملته المياه .. ومع أنه كان جثة هامدة فانها مع ذلك كانت تخشاه .. ولذا أصبحت المنطقة خالية من الاسماك ، مما دفع بعض الصيادين الى التفكير فى الابتعاد عن القرية ، والنزوح الى أماكن أخرى تتواجد فيها الاسماك لولا أن زوجها كان لا يدخر وسعا فى صدهم عن ذلك ويذكرهم بالايام المجيدة التى عرفتها منطقتهم ، ولذا لا بأس من الصبر والانتظار أيام نذرة الاسماك ..!

وعندما رمت الامواج الى الشاطىء بهذا الحوت الاسود ، وتلالا لونه تحت أشعة شمس الصباح وبدا وكأنه زمردة سوداء تتلالا ابتهج زوجها ، وقال لها : « لقد انفرجت أزمتنا .. الان يمكننا أن نصطاد كثيرا ، ونعوض عن الايام القاحلة .. » ولكنها الان تستبطىء ظهور الاسماك، او ان يسمح لها بالذهاب معهم ، غير أن الاسماك لم ترجع بعد الى مقرها وزوجها لا يسمح لها بان تذهب معهم لاقتطاع نصيبها من لحم الحوت الكبير ..

كان بعض الصيادين يمرون بهم وقد رجعوا محملين بلحم الحوت الكبير ، فيخاطبون الصياد من غير ان يرد عليهم بشىء ، فلقد كان غاضبا من تصرفهم واذا بدا وكأنه يردد فى داخله : « انهم يسمحون لانفسهم باكل حوت ميت نتن رمته الامواج .. مع أنهم انتظروا مدة طويلة ، ولم يبق أمامهم الا وقت قصير يمكنهم أن يصطادوا فيه اسماكا طرية ، ولكن

لشدة حمقهم ينصرفون عن عملهم ويسارعون الـى جيفـة نتنـة ..! »

كانت الزوجة تتابع حركة الناس وهم حول الحوت الكبير، وكأنهم فى عيـد ، وخمنت أنهم لن يتركوه الا بعد أن تبـرز عظامه فى الاخير .. ويحق لهم أن يفعلوا ما دام حرمهم قوتهم كل هذه الايـام السوداء التى عانوا فيها القحط الشديد ..! ووجدت نفسها تردد أفكار زوجها ، وابتسمت وهى تلتفـت اليه ، لقد كان ملتصقا بقصبته ..

ولم يشعر الصياد الا وهجومـا مفاجئا ينقض علـى صناراته ، وتمهل قليلا ليتأكد من أنها فعلا اصطادت شيئا .. ثم على حين غفلة جذب الخيط جذبة قوية ، ثم اردفها بلـف الخيط بسرعة الى أن بدت سمكته كسبيكة من الفضة تتماوج على صفحـة الماء الازرق البديع .. والتفت نصف التفاتة الى الغلام يطلب منه (الفانجو) وما هى الا لحظات حتى كـان يمسك بها بين يديه قائلا لزوجتـه : « هات سلتـك .. » واستبشرت الزوجة خيراً .. ها هـى ذى أفـكار زوجهـا تتحقق ..! ولم يلتفت اليها ، بل أعاد الطعم الى صناراتـه ورمى بها الى البحـر .. وما لبث أن انسجم مع صيده الذى توفرت له منه اسماك كثيرة ..

وجلست الزوجة هذه المرة وهى تراقب زوجهـا فـى اعجاب ، ثم لاحظت عودة الصيادين ، وقد حملوا معهم ادوات صيدهم يقتربون منهم .. ولشد ما اندهشت عندما علمت ان السلطة منعتهم من أكل الحوت الكبير مخافة أن يكون مسموما .. والتفت اليها زوجها هذه المرة ، وبريق عينيه يحمل الـف معنى فى حين لم يكتم الغلام ضحكته التى انطلقت منه عاليـة ما لبثت أن اصابت الصياد فضحك ملا شدقيـه ...